الإمام عبد الحليم محمود

مقالات في الإسلام والشيوعية

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

(رَبَّنا آتِنا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَدًا) .

الفصل الأول

ظروف وملابسات

فى يوم من الأيام جاءنى الأخ « محمد عبد الرحمن » وهو يعمل فى الصحافة . وأخذ يتحدث معى عن عديد من الأسئلة . وأخذت أجيبه ، وذلك أمر عادى يحدث من حين لآخر .

وكان من بين هذه الأسئلة سؤال عن الشيوعية ، ونص السؤال ، ونص الإجابة عليه مايلى :

السؤال : هل يمكن أن أكون مسلمًا وأعتنق الشيوعية . ولماذا ؟

الجواب : إن المسلم الصادق يكتفى بإسلامه عن أى مذهب آخر . إن الله سبحانه وتعالى يقول فى وضوح لا لبس فيه :

(اليومَ أكملتُ لكم دِينَكُم وأَتممْت عَلَيكمْ نِعْمَتِى ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينًا) .

لقد أكمل الله الدين فى العقيدة .

وإنه لمن المعروف ، أن الشيوعية تحارب الدين . تحاربه بكل وسيلة ممكنة .

وقد أعلن ذلك كبار زعمائها ، وإنه لمن المشهور ماقاله كارل ماركس ..

لقد قال أولا : يجب أن يزول الدين من المجتمع ، فلما قيل له : إن الإنسان لابد له من عقيدة . فما هو البديل للعقيدة فى الله تعالى ؟

قال : الهوهم بالمسرح . وأكثروا من المسارح . وكلما أكثرتم من المسارح . أخذ الناس يتحدثون عن نجاح المسرحية أو إخفاقها ، وعن نجاح الممثلين والممثلات فى أدوارهم أو إخفاقهم فيها . وينسون بذلك العقائد الدينية .

وهو القائل : الدين أفيون الشعوب .

وزعماء الشيوعية لهم أقوال . إن لم تكن هى ماذكرناه نصا ، فإنها فى معناه . وكلهم يتفقون فى ذلك ، وعملهم مؤيد لذلك كل التأييد . فأشدهم إلحادًا ، أو أشدهم محاربة للدين ، هو الذى يترقى فى الحزب ويسود .

وصحفهم تدعو فى إلحاح . إلى التخلص من كل مابقى من آثار الأديان .

ولقد قرأنا عدة مرات فى صحفنا نقلا عن الصحف الروسية قرأنا أن الأديان مازالت لها آثار يجب التخلص منها ، وتأخذ على المستولين عدم ازدياد النشاط . حتى ينتهى من البقية الباقية فى أقرب زمن مستطاع .

والمساجد فى ألبانيا الشيوعية مغلقة . ومَنْ أظهر ميولا دينية ينكل به بشدة . قد تكون رميًا بالرصاص . ولايحتل مكانًا مرموقًا فى أى قطر شيوعى . من له ميول دينية .

وللشيوعيين منهج معين فى الهجوم على الدين .

والخطوة الأولى فى الهجوم على الدين ، هى السخرية بعلمائه . والاستهزاء بهم ونقدهم ، والهجوم عليهم بكل وسيلة : الصور الكاريكاتورية ، التمثيليات . المسرحيات . الأفلام . النكت .

إن خطتهم الأولى أن يضعفوا علماء الدين بكل وسيلة .

الصغير يضخمونه . واللاموجود يوجدونه . والشائعات يكثرون منها .
وينساق وراءهم فى ذلك رجال سذج ، والسذاجة فى كل الشعوب .
حتى إذا ماضعف رجال الدين : هاجموا الدين فى بعض فروعه . وهذه هى الخطوة الثانية . فإذا ماتمت . هاجموا الدين مباشرة .
وخطتهم هذه درسوها فى أناة . وعندهم فى كل الخطوات رسم محدد ، وأحاديث مكتوبة ، وأشياء كثيرة معدة . هذا فيما يتعلق بالعقيدة .
وإذا كان الله تعالى قد أكمل الدين فى العقيدة ، فإنه سبحانه قد أكمله فى الاقتصاد .

إن الإسلام شرّع للمال ، لقد شرّع للتجارة ، وللملكية الزراعية ، وللإيجار ، وشرّع للبيع والشراء . ووصل به الأمر أن بيّن فى استفاضة كيفية كتابة الدين ، وحدد فى استفاضة أيضًا الميراث ، والزكاة ومصارفها .
والأصل الأصيل فى الإسلام . هو حرية الفرد فى المال ، وذلك فى إطار المبادئ الإسلامية العامة .

ومن الأشياء التى تستدعى الكثير من التفكير . أن عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان . والزبير . وطلحة رضى الله عنهم . كانوا من أصحاب الملايين . وكانوا مع ذلك من المبشَّرين بالجنة . ولم يكن « أبو ذر . أو بلال . أو صهيب » من المبشَّرين بالجنة وما من شك فى أنهم كانوا سادة فى الصلاح والتقوى ، وأن الجنة بفضل الله مصير لهم . ولكنهم مع ذلك ليسوا من العشرة المبشرين بالجنة .

وإذا كان الأصل فى الإسلام . هو حرية الفرد فى المال فى إطار المبادئ للإسلام ، فإن الشيوعية تعارض ذلك فى شدة .

لقد استولت على الثروات والملكيات فى جبروت وقهر . ولم تسمح للفرد بالحرية فى المال والثراء .

وإذا كان الإسلام والشيوعية فى تعارض فى العقيدة ، فإنهما فى تعارض فى الاقتصاد .

ثم إن تشريع الشيوعية فى الزواج . وفى الأحوال الشخصية على العموم ، مخالف لتشريع الإسلام .

والأخلاق التى تسود فى الجو الشيوعى ، تختلف فى كثير منها عن الأخلاق الإسلامية . وفى النهاية نقول :

إن الإسلام وحى إلهى معصوم . وكل خارج عليه خارج على العصمة .

أما الشيوعية ، فإنها اختراع بشرى من اختراعات اليهود ، الذين ديدنهم وشعارهم إفساد الإنسانية دينًا وتشريعًا وأخلاقًا .

ونجح اليهود إلى حد كبير فى نشر بدعتهم .

ولكن يجب أن يكون مفهومًا عند المسلم ، أنه مادام الله سبحانه وتعالى قد أكمل الدين ، وأتم النعمة ، ورضى لنا الإسلام دينًا : فإنه ليس لنا من طريق إلا طريق الإسلام .

هذا ما أجبت به ، وكان من الممكن – بالنسبة لى – أن يقف الأمر عند هذا الحد ، فما كنت أفكر فى يوم من الأيام أن أقوم بدراسة الشيوعية . إنما هو سؤال أجبت عليه كما أجاب عشرات من الكتاب عن أسئلة تتعلق بالشيوعية .

كان من الممكن أن يسدل ستار الصمت على الموضوع . إذ لست أول من أجاب على سؤال عن الشيوعية ، ولا آخر من يجيب .

ولكن المقادير شاءت غير ذلك .

فقد ظهرت كلمات نقد موجزة فى إحدى المجلات ، ولما قرأتها لم أجد فى نفسى مايدعو للرد . وكان من الممكن أن ينتهى الموضوع عند هذا الحد أيضًا . ولكن ..

ولكن ظهر فى عدد تال للمجلة نفسها مقال طويل ، ترك جوهر الموضوع . وهو الحديث عن الشيوعية ، وأخذ يكيل لى الشتائم كيلا . وقرأت المقال فوجدتنى بعد قراءته هادئًا كل الهدوء ، لم أجد فى نفسى إلا طمأنينة . لم يتحرك شعورى بثورة ، لم أصب على الكاتب اللعنات .. وإنما انغمست فى تفكير عميق . إن هذا المقال تنبيه وتوجيه . وكأنه يقول :

هذه هى الشيوعية : إنها كفر فى الأساس ، وفى البناء .

وهى سفه وجاهلية فى الجدل والنقاش .

وهى تسكت خصومها بالتنكيل والتعذيب ، والقتل . والسجن . إن استطاعت وملكت ، فإن لم تستطع ولم تملك حاولت أن تسكتهم بالإقذاع فى الشتائم . إن هذه هى الشيوعية !

وأخذت أسائل نفسى :

لِمَ لَمْ تكتبْ عليها من قبل ، مبينًا للناس حقائقها ؟ .

لم سكتَّ عليها للآن ؟

ماعذركَ أمام الله سبحانه وتعالى . وأمام رسول الله ﷺ ؟

إلى متى تترك المسلمين جاهلين بحقيقتها ؟

إنها تحاد الله ورسوله ، وتحارب الله ورسوله ، وتسعى فى الأرض فسادًا . وذلك منذ عشرات السنين .

أفما كان الأجدر بك ، أن تكرس جزءًا من وقتك فى بيان هذا الضلال ؟

أو ماكان الأجدر . أن تقوم بحملة توجه فيها أنظار مجمع البحوث الإسلامية . وأنظار علماء الأزهر . وأنظار المفكرين فى العالم الإسلامى . إلى الخطر الشيوعى ، وتدعوهم إلى تنوير الناس فى أمره ؟

إن فى العالم الإسلامى كثيرًا من المفكرين الذين يزعمون حب الإسلام . ويزعمون أنهم من كبار أنصاره ، أين أقلامهم ؟ إنهم يشغلون أنفسهم بتفاهات من اختلاف الفقهاء ، ويتركون الخطر يستشرى بنشر المبادئ الشيوعية ، إن آمالهم وقفت عند حد محدود لم تتجاوزه ، ثم يزعمون أنهم كبار المصلحين ، أين أقلامهم فى مهاجمة الشيوعية ؟ إن الشيوعية أخطر المبادئ الهدامة التى تفسد الشباب ، وتفسد المجتمع ، فأين جهادهم ضدها ؟ إن بعضهم يناقش فى القدر ، أو يتحدث عن زيارة القبور ، أو.. إنهم يعبثون .

وكنت يوم أن ظهر المقال الذى تناولنى بالشتائم . أستعد لحلقات فى التليفزيون عن العشرة المبشرين بالجنة . ولم يكن فى وقتى سعة للرد..

وظهر عدد آخر من المجلة ، وتناولنى أيضًا بالشتائم ، وظهر..

وانتهيت من برنامج التليفزيون بعد مدة طالت . وبدأت أفكر .

هل أرد ؟ وعلام أرد ؟

وهل ينزل كاتب كريم على نفسه ، إلى مستوى السباب ليرد بها على الشتائم والسباب ؟

وإذا فعل – ولايتأتى ذلك – فأى مجلة فى المستوى الكريم تنشر له فتسقط فى أعين الكرماء ؟ على أنه أصبح معروفًا أن التيار الشيوعى فى العالم الإسلامى والعربى تيار عميل ، إنه تيار مأجور ، وهذا التيار يسره أن يشتبك فى معارك . ليظهر لأسياده الولاء والإخلاص .

واستبعدت فكرة الرد منذ اللحظات الأولى للعزم على الكتابة ، وحل محلها محاولة تلافى التقصير :

أى حل محلها فكرة الكتابة عن الشيوعية نفسها ؟

والكتابة عن الشيوعية الآن فرض على كل قادر ، إنها فرض على كل مسلم يزعم إخلاصه لدينه ، ويزعم حبه لرسوله ﷺ .

إن التيار الشيوعى المخرب ، يجب أن يصد بالفكرة ، ويجب أن يصد إفساده وتخريبه بالقانون ، وبالردع ، وإلا طغى الطوفان ، طوفان الشر والفساد .

وفى أثناء بحثى فى المراجع عن العشرة المبشرين بالجنة ، كان الناس يتساءلون : لم لم يرد ؟ لم التزم الصمت ؟

وكان شعورهم جياشًا ، وأتتنى برقيات ، وأتتنى رسائل . وجاءتنى وفود تقول : ماذا نفعل ؟

وكنت تجاه كل هذا الشعور الجياش ملتزمًا الهدوء الكامل . لم أجد فى نفسى ثورة ، ولافى شعورى ضيقًا . وكنت أشكر الكثيرين على شعورهم الرقيق ، وكنت آمر أمرًا مؤكدًا للبعض الآخر بالتزام الهدوء الكامل ، عند من أجد فيهم رغبة فى تحقيق ماقاله شوقى :

والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعًا وإن تلقه بالشر ينحسم

ومن الناس إيجابيون . وحينا يرون موقفًا لايرضيهم يتخذون فورًا من الوسائل مايناسب .

إنهم إيجابيون فى الحياة : لايقفون متفرجين . ولا يذهبون مذهب السلبية . وإنما يتخذون الحق مذهبًا ، ويبينونه للناس من أجل الحق وحده .

ومن هؤلاء الأخ الفاضل المؤمن « محمود أبو وافية » فإنه حينما رأى التجنى والاعتداء لم يسكت ، وأحب أن يرضى ضميره وكتب فى جريدة الأخبار الغراء مايلى :

« أرجو أن تتقبل منى هذا العتاب حول مقالك الأخير ، الذى جانبه التوفيق ، والمنشور « بروز اليوسف » بتاريخ ١١ / ٨ / ١٩٧٥ بعنوان : « لاياصاحب الفضيلة » .

واسمح لى أن يكون عتابى قاسيًا فإن مقالك كان كذلك ، وماعرفت عنك إلا سعة الأفق والروح الديمقراطية السليمة .

ولأبدأ بالإجابة على سؤال ورد فى الصفحة السابقة تحت عنوان : « من الذى سخر من رجال الدين » حيث تقول :

ثم إنك تقول ياصاحب الفضيلة مانصه :

وللشيوعيين منهج معين فى الهجوم على الدين ، الخطوة الأولى هى السخرية بعلمائه بكل الوسائل . . . إلخ ، ثم تتساءل فى أى مكان من الأرض يحدث هذا ؟ ومن هم العلماء الذين كانوا عرضة للسخرية ؟

وإننى أجيبك على سؤالك هذا . فبالنسبة لمكان الهجوم فهو القاهرة شارع قصر العينى . مجلة « روز اليوسف » بعددها الصادر يوم ١١ / ٨ / ١٩٧٥ م .

وبالنسبة للجزء الثانى من سؤالك : من هم العلماء الذين كانوا عرضة للسخرية ؟

فإننى أجيبك : إنه هو فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ، والذى هاجمه ،

هو الأستاذ « عبد الرحمن الشرقاوى » رئيس مجلس إدارة « روز اليوسف » ؟

إن الإمام الأكبر ليس مجرد فضيلة الشيخ « عبد الحليم محمود » ، المواطن المصرى ، ولكنه هو الرمز الحى للمسلمين ، فأنت حينما تهاجمه بحجة أنه رجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ومن ثم يجوز نقده ، لاتكون موفقًا ، لأنك تجاهلت مشاعر المسلمين ، وكان الأجدر بك أن تعيد التفكير .

ولكم آلمنى حقًّا أن أراك تقول عن الإمام : « وله العتبى حتى يرضى » .

ذلك أن هذا التعبير ، لم يستعمله إلا النبى ﷺ ، وكان يخاطب به الله سبحانه وتعالى ، ويشكو إليه كذلك ، فقد جانبك التوفيق حينما شبهت بطريق غير مباشر ، فضيلة الإمام الأكبر ، بالنبى محمد عليه الصلاة والسلام ، فوصفته بأنه رجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . ومن المعروف أن النبى ﷺ هو الذى وصف بهذا التعبير .

هل تسمح لى أيها الصديق أن أسألك : « بصفتك قد صليت فى موسكو » ، من الذى قال : « الدين أفيون الشعب » ؟

كذلك فأنت تقول فى الصفحة التاسعة من المجلة مانصه :

« إننى أرجوك أن تعود إلى نصوص القرآن والأحاديث الشريفة ، فى أمور المال وحق الفرد ، وحق الأمة ، لكن تخرج على الناس بكلام آخر تحق فيه الحق ، وتمحو عن الإسلام عار أنه ينحاز لطبقة ضد طبقة ، ووصمة الزعم بأنه يبارك الاستغلال » .

وأحب أن أسألك ، من الذى يقول ، إن هناك عارًا قد لحق بالإسلام ؟

ومن الذى قال : إن الإسلام ينحاز لطبقة ضد طبقة ؟

ومن الذى زعم ، أنه يبارك الاستغلال ؟

إن كنت تقصد ، أن الذى فعل ذلك ، هو فضيلة الإمام الأكبر ، بمقاله المنشور فى آخر ساعة ، فقد أخطأت ، لأننى وغيرى لم نلمس ذلك ، ومن ثم فإنك تكون قد تجنيت على الرجل ، ومسست مشاعر المسلمين ، وإن كنت لا تقصده ، فأرجو أن تخبرنا ، من الذى فعل ذلك ، حتى ولو كان الذى فعل ذلك هو أنت نفسك برغم أنك قد صليت فى موسكو ..

وأخيرًا فما كنت أحب لك أن تتردى إلى قولك للإمام : « يجب ألا توظف الدين ، لتخدم الرأسمالية وتهاجم الاشتراكية » . فهذا اتهام غير صحيح .

وختامًا فأنت تقول : إنك لست شيوعيًّا ، ولا ماركسيًّا ، وأنا أعلم أنك فعلا لست شيوعيًّا ، ولا ماركسيًّا ، ولكنك وطنى نبت من أرض مصر ، ومن هنا دعنى أهمس فى أذنك بمثل من قريتنا يقول :

« من جاور الحداد ابتلى بناره » ، وأنت فى « روز اليوسف » تجاور كثيرًا من الحدادين ، فأرجو أن تحرص من الاكتواء بنارهم الحمراء » .

وكتب غير « الأستاذ أبو وافية » فى مجلة آخر ساعة كتّاب آخرون ، من خيرة الدارسين المثقفين .

وأرجو الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء لقد كانوا إيجابيين ، وكانوا على استعداد لأن يسيروا فى الطريق إلى غايته ، ويبينوا للناس فى صراحة كافية ، كفر الشيوعيين ومعارضتهم للدين الإسلامى وإفسادهم .

وكتب الأستاذ « إبراهيم سعدة » ، كلمة نابعة من وحى شعوره بالإسلام الصافى هذا نصها . وقد عنونها بكلمة .

« وقاحة نادرة » .

« رأينا « الملكة اليزابيث » ، ملكة بريطانيا العظمى ، تنحنى فى خشوع

واحترام أمام « بابا روما » ، وشاهدنا الرئيس الأمريكي الراحل «كنيدى » وكان وقتها رئيس أكبر ، وأقوى وأغنى دولة فى العالم ، يقبل يد البابا عندما زاره فى الفاتيكان .

وما فعله «كنيدى ، واليزابيث » فعله كل من أتيحت له فرصة مقابلة البابا أو الاقتراب منه .

إنهم يحترمون فيه الرمز الذى يبرزه ، ويقبلون فيه الدين المسيحى الذى يمثله . هذا مايفعله المسيحيون ، برجل دينهم الأكبر .

أما نحن فى مصر ، فى دولة العلم والإيمان فإننا نفعل شيئًا مخالفًا وشاذًا ، فمنذ فترة وشيخ الجامع الأزهر الدكتور « عبد الحليم محمود » ، يتعرض لحملة حقيرة ، ومسعورة ، من جانب من يسمون أنفسهم بالماركسيين .

لقد نزعوا عن وجوههم برقع الحياء ، وأصبحوا أكثر وقاحة ، وأكثر بجاحة .

فوجئنا ببعضهم يتعرض لشخص الإمام الأكبر ، بكلمات أقل مايمكن أن توصف به ، أنها كلمات وقحة ، ومبتذلة ، وتنم عن استهتار بكل القيم وبكل المثل الأدبية والخلقية .

وهذه الجريمة سبق أن ارتكبها الذين نسوا دينهم طوال سنوات الهوان الغابرة ، والذين بلغ من غرورهم أنهم تصوروا أن مراكز القوى التى تربعوا فوقها ، قد رفعتهم إلى مرتبة الآلهة ، فعاثوا فى الأرض فسادًا . تجاهلوا دينهم . سخروا من شيوخهم .

وتمادوا فى جبروتهم وبغيهم ، فأصيبت بلادهم بالخراب والدمار ، وفتحوها أمام الغزاة ، وفرشوها تحت أقدام اليهود .

كان لرجال الدين فى بلادنا هيبة كبيرة ، وجاءت مراكز القوى ، فبددت هذه الهيبة ، وألقت بالشيوخ الأفاضل فى السجون والمعتقلات ، وأطلقت عليهم الكلاب الآدمية ، والحيوانية ، لتنتهش أرواحهم ، وتمزق أبدانهم .

كان شيخ الأزهر ، هو أعلى رأس فى البلد ، ليس بصفته الشخصية ، وإنما للمنصب العظيم الذى يشغله ، وللمهمة الكريمة التى يقوم بها ، ولهالة النور التى تحيط بمئذنة جامعه ...

وجاءت مراكز القوى ، لتنال من هذه الهالة المضيئة ، وتحاصره وتمنع حركته ، وتملى عليه ما يقوله .

وكلما تمادت القوى فى الاستهتار برجال الدين ، ازدادت فرحة هؤلاء الذين لادين لهم ، والذين تركوا الله وآمنوا بماركس ، واستنكروا : « موسى وعيسى ومحمد » والتفوا حول « لينين ، وستالين ، وخروشوف » .

وبدأنا نقرأ العجب العجاب بأقلام هؤلاء الملحدين ، الذين سيطروا – فى سنوات ماضية – على أجهزة الإعلام المصرية .

قرأنا أن الشيوعية لا تتعارض مع الأديان .

وقرأنا عن الشيوعى ، الذى يواظب على تأدية الصلاة فى أوقاتها .

ورأينا الملحد الماركسى ، الذى ظهر فوق شاشة التليفزيون ليحدثنا عن الشيوعية ، وفى يده مسبحة أنيقة يسبح بها « ماركس أكبر » بديلا عن « الله أكبر » ، أستغفر الله !

وبلغ من استبداد هؤلاء ، أنهم منعوا أى نقد يوجه من أئمة الدين للنظرية الشيوعية الإلحادية ، بل إنهم نجحوا فى حذف كلمة الشيوعية من أعمدة الصحف والكتب ، واستبدلوا بها كلمة : « اشتراكية » ، ووصفوها بأنها

« لاشرقية ولاغربية » . وإنما هى « نابعة من واقعنا ودينا وآمالنا » .

ولقد تحملنا من هؤلاء الأدعياء الكثير .. تحملنا محاولة استغفالنا بأقوالهم المعسولة .. تحملنا أن نسمع أن أحدهم كتب عن الأرض ، وأكد انتماءه للفلاح ، وتحالفه مع العامل ، وتجاوبه مع المقاتل ، وإيمانه بالمثقف ، ثم تجده يعيش عيشة الأثرياء المنعمين : فهو يتقاضى الحد الأقصى للمرتب فى الدولة . يمتلك سيارة . ويقيم فى شقة تطل على النيل ، ويستعد للانتقال قريبًا لشقته التى اشتراها أمام « شيراتون » بنحو عشرين ألف جنيه .. ، ويصطاف فى شقته الفاخرة فى الاسكندرية . . . ، ويسهر ويسكر ليلا .. ويثور ويناضل نهارًا ! !

تحملنا أن نرى حلفاء الطبقة الكادحة ، الذين يملكون عشرات الألوف من الجنيهات !

تحملنا مايقوله الماركسى الآخر ، عن حتمية انتصار التحالف الشعبى ، ضد الرجعية والرأسمالية ، برغم أن هذا الماركسى نفسه ، ينتمى إلى طبقة الباشوات ، ويسكن فى قصر ، ويمتلك فيلا فى باريس !

تحملنا منهم هذا كله ..

ولكن حملتهم الأخيرة على الدين ، وعلى شيخ الأزهر . لايمكن احتمالها أو السكوت عليها .

حرام والله أن نسمح لهؤلاء الأدعياء ، الذين لادين لهم ، بحمل المطرقة ، لهدم صورة من أجمل الصور فى قلوبنا وعقولنا . لقد أسعدنى أن هيئات كثيرة ، وأقلاماً عديدة ، هبت ووقفت ضد هذه الفئة الملحدة ، ولكن هذه الوقفة لا تكفى ، لابد أن تكون أكثر اشتعالا وتأثيرًا لابد أن تستمر ! !

لقد تساهلنا كثيرًا فى الماضى . مع هؤلاء الذين تحالفوا مع مراكز القوى .

لتدمير أشياء جميلة ومقدسة فى عيوننا وقلوبنا !

وآن الأوان للوقوف وقفة حاسمة وصارمة ، للدفاع عن ديننا وكرامة شيوخنا ! ! » ا هـ .

وشكر الله « للأستاذ إبراهيم سعدة » .

وأحب أن أذكر أننى لم أجلس مع « الأستاذ أبو وافية » ولا مع « الأستاذ إبراهيم سعدة » فى جلسة تناولنا فيها الحديث ! !

إن ما كتبناه لم يكن عن صداقة بيننا ، وإنما كان خالصًا لوجه الله منبعثًا عما شعرا به من اعتداء ظالم ، فأحبا أن يردا الاعتداء بكلمة الحق .

ومن بين الرسائل التى وصلتنى رسالة أعتز بها ، لمكانة كاتبها فى الثقافة ، وفى الفكر ، وفى المكانة الاجتماعية . إنه وزير الأوقاف والحج فى المملكة العربية السعودية ، وهو شخصية معروفة بالاتزان والتروى والحصافة فيما يكتب وفيما يقول ، وتلك نص الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » الموقر .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد .....

الآن ، وقد انتهيت من قراءة البيانات التى نشرت فى مجلة آخر ساعة العدد « ٢١٣٠ » فى ١٣ شعبان ١٣٩٥ هـ الموافق ٢٠ أغسطس ١٩٧٥ ، بعد أن قرأت البطلان الذى نشر فى مجلة « روز اليوسف » فى موضوع الإسلام والشيوعية . تأكد لى أن الله واسع الفضل والمنة على عباده المؤمنين .

لقد كان ذلك البطلان زبدًا ذهب جفاءً تحت قوة الحق ، ولكن حكمة الله ظهرت فى أن هذه الفتنة الدينية ، أثيرت فى وقت كان لها أفضل رد فعل ..

إن رد فعلها كان خيرًا عظيمًا على الوضع القائم فى مصر ، فى وقت تجرى فيه المفاوضات ، مع أعداء الله وأعداء الدين من اليهود ، على رتق جوانب من الفتق الذى كان للشيوعية اليد العظمى فى إحداثه .

إنه لايمكننا أن نتصور انتصار الصهيونية على الأمة العربية ، واستذلالها لعزتها ، وغلبتها على « بيت المقدس » واعتدائها على مقدساتها ، لو لم يبتل العالم العربى بذلك التيار الإلحادى الشيوعى ، الذى أفسح المجال لتلك الطغمة التى ضربت عليها الذلة والمسكنة .

لو لم يبتل العالم العربى ، بتغلغل ذلك التيار الإلحادى الشيوعى ، فى الأمة العربية ، لما كان الخيال يستطيع تصور حدوث ماحدث .

ولقد جاء هذا الحوار بين الحق والباطل ، فى هذا الظرف السياسى ، الذى تعالج فيه الجروح التى خلفها المد الشيوعى فى العالم العربى ، نعمة من الله وفضلا ، ليرتفع صوت الإسلام عاليًا فى مواجهة الشيوعية ، حتى تتجمع الطاقات الإسلامية فى هيئة فكر موحد ، لتكون ظهراً للسياسة الحكيمة المتبعة حتى تسد الطريق فى وجه الدين الشيوعى وأنصاره ، لئلا يعوقوا الوصول إلى النتائج التى نرجو أن تكون فاتحة خير وبركة ، على جميع البلاد العربية التى ذهبت ضحية موجة الانحرافات الدينية ، التى دفعتها الشيوعية إلى هذه المنطقة .

إن هذا الحوار الذى افتتحت به آخر ساعة مع فضيلتكم وكان سببًا فى أن تكشف الشيوعية عن حقدها الدفين ، لهو إرادة من الله ، ليحق الحق ويزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً .

إننى بما بيننا من حب فى الله ، وكره للإلحاد والملحدين ، أقدم إليك تهنئتى على أن جعلك الله سببًا فى هذا الخير على الإسلام والمسلمين . وآمل أن تنقل عظيم شكرى إلى أصحاب الرأى السديد ، الذين غمسوا أقلامهم فى مداد من نور ، ليخطوا كلمة الحق ، وأناروا بها صفحات « آخر ساعة » ، لتظهر حقيقة الدين جلية واضحة ، وسلطوا الأضواء على جميع جوانبها . لئلا ينخدع البسطاء بالباطل من القول .

وتقبلوا خالص تحياتى . اهـ .

وشكر الله لصاحب المعالى وزير الأوقاف والحج .

* * *

وكتبت المقال الأول عن الشيوعية ، وشرح الله صدر الإخوة المشرفين على « أخبار اليوم » لنشره ، ثم نشر المقال الثانى فى الأخبار وهكذا ....

وفى هذه الأثناء . كنت دائب السعى فى جمع المراجع واستيعابها دراسة وتأملا – فتبين لى بما لايدع مجالا للشك – أن :

١ – الشيوعية وليدة الصهيونية ، إن الصهيونية هى التى اخترعتها وأنشأتها وأخذت ترعاها !

٢ – الشيوعية تتعارض جذريًا مع الإسلام . كما يتعارض الكفر والإيمان ، ذلك أن الشيوعية ملحدة والإسلام دين !

٣ – تتعارض الشيوعية مع الإسلام فى الأخلاق . إن للإسلام أخلاقه القائمة على الرحمة والعدل والانصاف ، وحب الجار ، والبر بالإنسانية أجمع .

أما الشيوعية فإنها تقوم على إثارة الكراهية والبغض والعداوة .. والحقد ، بل الحرب بين الطبقات !

٤ – يتعارض الإسلام مع الشيوعية جذريًا فى الاقتصاد ، وذلك أن الإسلام يقر الملكية الفردية ، ولايضع فى طريقها عقبات ، مادامت فى إطار المبادئ الإسلامية .

أما الشيوعية فقد نسفت الملكية نسفًا .

٥ – الإسلام يحترم الفرد . ويحتفظ له بحقوقه ، ويحافظ على كرامته . فى حدود مبادئ الوحى .

أما الشيوعية فإنها لاتضع الفرد فى سجل تقديرها . !!

وهذا التباين والتعارض بين الشيوعية والإسلام أصبح الآن من الوضوح بالقدر الكافى لكل من درس الشيوعية والإسلام .

ومازال فى الحديث عن الشيوعية الكثير مما يقال ويكتب .

بيد أن الكثيرين لم تتح لهم ظروف الحياة الوقت الكافى للدراسة .

ومن أجل بيان الحق وإيضاح التعارض ألفنا هذا الكتاب .

على أننى فى أثناء بحثى وجدتنى مضطرًا لبيان الحق فى شأن الصحابى الجليل « أبى ذر » رضى الله عنه ، ويسر الله الكتابة عنه . وبيان صلته بالشيوعية . وكان ذلك الكتاب الثانى .

وفى أثناء بحثى ، صادفت فتاوى لكبار العلماء خاصة بالشيوعية . فأخذت فى ترتيبها وتنسيقها والتعليق عليها ، فكان هذا هو الكتاب الثالث .

ومازال فى الحديث عن الشيوعية الكثير مما يقال ويكتب ونعتقد أن المفكرين القادرين على البيان والنشر عليهم واجب مفروض من قبل الحق . ومن قبل الضمير ، أن يبينوا للناس ماعليه الشيوعية من إلحاد وكفر .

وعلى علماء الإسلام أن يوضحوا للناس ماعليه الشيوعية من زيغ وضلال ، وذلك ميدان من ميادين الجهاد الواجبة على القادرين .

والله أرجو أن يهدى بهذا الكتاب ويهدى له ، وأن يشرح له صدورًا وينير به عقولا .

« إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب » .

الفصل الثانى

الشيوعية
المذهب وصاحب المذهب

نحب أن ينظر المواطنون إلى الشيوعية من واقعها الذى ظهرت فيه ومن أقوال أئمتها فيما يتعلق بجوانبها المختلفة . إن للشيوعية رأيًا فى :

(ا) العقيدة .

(ب) الأخلاق .

(حـ) النظام المالى .

(د) نظام المجتمع : الأسرة .

وهذه هى جوانب المجتمع المختلفة .

أما فيما يتعلق بالعقيدة ، فإنه أصبح واضحًا كالشمس أن الشيوعية تنكر وجود الإله ، والإلحاد كما يقول « لينين » : جزء طبيعى من الماركسية .

وتقول المجلة التى أنشأها الشيوعيون وجعلوا من أهدافها محاربة الدين باسم العلم ، وهى مجلة « العلم والدين » ، ثم هى مجلة تنطق بالرأى الرسمى للماركسية . . . تقول :

« إن بين الماركسية والأديان السماوية صراعًا مستمرًّا » .

ونقول : لقد أدركنا فى الاتحاد السوفيتى منذ البدء : خطورة بقاء الميراث الدينى على حاله فى المجتمعات السوفيتية ، مسيحية أو إسلامية .

ولازلنا نواجه اليوم تحديات خطيرة ، وخصوصًا فى المناطق الإسلامية ، لذا قرر المؤتمر الثانى والعشرين ، للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى زيادة اليقظة والحذر ، وتجديد العزم على قهر البعث الدينى فى المناطق الإسلامية .

وقد يتظاهر بعض الشيوعيين بالإيمان ، ويذهبون إلى المساجد أو إلى الكنائس ، ولكن ذلك خداع أبان عنه كُتَّاب الشيوعية أنفسهم ، وفضحوا أنفسهم بأنفسهم ، تقول مجلة « العلم والدين » :

« وفى بعض النظم الماركسية الجديدة نجد جماعات من أصحاب المسئوليات ، وهم ماركسيون فكرًا وقناعة ، يمارسون الفروض الدينية علانية ويشجعونها ، ولكنهم يفعلون ذلك للسيطرة على زمام المعاقل الدينية ، لئلا تتحداهم ، أو ترى مرحلة التحويل الماركسى ، مرحلة قاسية .

ونحن فى الاتحاد السوفيتى لجأنا إلى هذا الأسلوب أيضًا فى مناطقنا الإسلامية ، كما يلجأ إليه بعض أقطاب الحزب الشيوعى فى إيطالية « الكاثوليكية » .

ففى مثل هذه المناطق الإسلامية وجدنا أن ممارسة الطليعة الماركسية للفروض الدينية ، يساعدنا كثيرًا على مرحلة التحويل الاشتراكى هناك ، لأن العبادة العلنية فى الوسط الإسلامى تعبر عن احترام الطليعة الماركسية للمشاعر المحلية ، وبالتالى تنتزع هذه الطليعة من هذا الوسط الإسلامى الاحترام والطاعة للقيادة الماركسية .

ويقول الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» عن الشيوعيين :

«قد كفروا بالدين ، لأن الدين فى عرف الشيوعية خرافة» .

وحينما يقول الإنسان بأن الشيوعية إلحاد وكفر ، فإنما يعبر عن رأى ماركس وأنجلز ، ولينين ، وستالين ، وزعماء الشيوعية جميعًا ، وسيجد القارئ من أقوالهم فى هذا الكتاب ، مايغنينا عن التطويل فى النقل عنهم .

ولقد أبان عن ذلك الكثير من أعلام العالم الإسلامى : «فالملك خالد» يقول :

«وأى نفع للإنسانية أو الجماعة أو الفرد من مذهب هدام ينكر وجود الله ، ويحارب كل القيم الإنسانية ، إن المذهب الذى يصل فى التحجر إلى حد المادية الملحدة هو مذهب شديد الخطر على الإنسان نفسه ، والمذهب الذى يضيق بالخالق عز وجل ، حتى ينكر وجوده ، لايمكن أن يؤمن بوجود الإنسان والحرية والقيم الإنسانية ، ولهذا رأينا المجتمع الشيوعى خاليًا من الإنسان ، لأن الإنسان لايوجد إلا حيث يوجد الإيمان والدين والحرية ، والشيوعية لاتقوم إلا على هدم الدين وتخريب المثل وسلب الحرية» .

وقد أدت عداوة الشيوعية للدين إلى عداوتها – على الخصوص – للإسلام ، وبمقدار تمسك المسلمين بدينهم الحنيف ، كان التنكيل بهم أشد .

يقول «فهد بن عبد العزيز» :

«والعداء بين الشيوعية والرأسمالية عداء حياة أوموت ، فالشيوعية تعادى كل نظام وعقيدة يغايرانها ، وتحاربهما بنفس الحقد والقسوة والقوة ، التى تحارب بها النظام الرأسمالى ، وأعنف ضربة وجهتها الشيوعية لم تكن موجهة إلى النظام الرأسمالى ، لأن له قوة مادية تقف فى وجه الشيوعية ، بل كانت موجهة إلى

الإسلام فى الدول الإسلامية التى احتلتها مثل : « بخارى وطاشقند . والقرم . والقوقاز » . وفتكت بالمسلمين . وقضت على الإسلام فيها .

« والشيوعية طامعة فى ضرب الإسلام فى كل أقطاره ، وبدأت بالحرب الثقافية والفكرية . فأصدرت رسائل وكتيبات ملأتها بالطعن فى الإسلام ورسوله الكريم . محمد ﷺ . لتشكك الناشئة المسلمة فى دينها تمهيدًا لتحويلها إلى الشيوعية » .

وعداوة الشيوعية للإسلام على الخصوص ، واضحة سافرة ، لاتحتاج إلى استدلال . ولقد أبان عن ذلك كثير من الكتّاب المسلمين وكثير من الكتب ، ومن ذلك البيان الذى أصدرته مجموعة من العلماء والمصلحين بجماعة الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية . الذى يقول :

فالمنجل الشيوعى يعمل بالليل والنهار على إبادة المسلمين . ومحو الإسلام فى أواسط آسيا وشرق أوربا . وقد قضى فعلا على (شعب القرم الإسلامى) . وأوشك كثير من الشعوب المسلمة الأخرى على الانقراض ، وبدأ ظل الإسلام يتقلص فى بلاد أشرقت عليها شمسه منذ أكثر من ألف سنة ، وأنجبت أئمة العلماء ، وأجلة الصالحين .

أيها المسلمون :

إن هذا الدين الذى به تؤمنون يحارب حربًا عنيفة لاهوادة فيها فى جميع البلاد الشيوعية ، ومالم تدركه رحمة من الله فسيندثر على أيدى الطغاة لا قدر الله .

لقد خرب الشيوعيون فى مدة حكمهم الوجيزة على هذه البلاد عشرات الألوف من المساجد والمدارس الدينية ، كما قتلوا عشرات الملايين من المسلمين

الذين استبيحت أرواحهم وحرماتهم وأعراضهم ، وغيبت ظلمات السجون ومجاهل سيبريا عددًا لايحصى من المسلمين الأبرياء ...

هذا فيما يتعلق بالموضوع الأول : العقيدة .

أما فيما يتعلق بالموضوع الثانى : موضوع الأخلاق .

فإنه يكفينا أن نذكر نصين أو ثلاثة يعبران تعبيرًا صادقًا عن جو الأخلاق الشيوعية المعارض للجو الدينى . يقول « هارولد كوكس » فى كتابه « الحرية الاقتصادية » :

« ليس فى تعاليم الشيوعية شىء مثالى أو رفيع ، إنها تستنصر جميع النزوات وجميع الرذائل ، كالحسد والغيرة والشهوة ، هى تشجع ، أو على الأقل ، تجيز الإتلاف والشطط والخلاعة والإيذاء . إن غايتها السلب والنهب » اهـ .

ومما يتصل بالأخلاق أسلوبهم فى الجدل ، إنه ليس أسلوب :

(وَجادِلهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) .

وإنما هو أسلوب يصفه الأستاذ « لافالى » فيحسن وصفه حينما يقول :

« إن لهجة التهييج والحقد التى يكتب بها الشيوعيون تهاريجهم الطنانة ، لأشبه شىء بنغمة الموت عند أكلة لحوم البشر » .

والشيوعيون يكرهون أسمى الفضائل الإنسانية : الرحمة ، الشفقة ، العطف ، حب الجار ...

وتأمل معى الآن مايقوله لسانهم الرسمى :

« نحن نكره المسيحية والمسيحيين ، وحتى أحسن المسيحيين خلقًا نعده شر أعدائنا ، وهم يبشرون بحب الجيران والعطف والرحمة ، وهذا يخالف مبادئنا ، والحب المسيحى عقبة فى سبيل تقدم الثورة ، فليسقط حبنا لجيراننا ، فإن

ما نريده هو الكراهية والعداوة ، وحين ذاك نستطيع غزو العالم » .

ولقد ألقى « لينين » بيانًا فى المؤتمر الروسى لاتحاد الشبان الشيوعيين . فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٠ ، وفيه أنكر كل الأخلاق والفضائل ، التى أمرت بها الأديان ، وجاءت على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .. ويكفى أن نذكر بعض كلماته من ذلك الخطاب الذى أنكر فيه وجود الله ، وبالتالى أنكر الأخلاق الدينية ..

وهنا يأتى السؤال الهام : كيف يكون تعليم الشيوعية ؟ وماهى الأساليب الخاصة ، التى يجب أن تمتاز بها طرقنا فى التعليم ؟

إن أول ما أرى إيضاحه لكم فى هذا الصدد . هو دستور الأخلاق الشيوعية .

قد تتساءلون : وهل هناك شىء يسمى الفضائل الشيوعية ؟

الجواب : نعم ، كثيرًا مااتهمت البورجوازية الشيوعيين بأنهم لايعبئون بالأخلاق . وأنهم ينكرون أى مبادئ لها ..

إن إلقاء القول بهذا الشكل إنما هو من قبيل ذر الرماد فى عيون العمال والفلاحين ، وإنما الحقيقة عن إنكارنا قواعد الأخلاق ، إننا ننكر ماتدعيه البورجوازية من أن مبادئ الأخلاق هى أوامر من عند الله ، فنحن بالطبع لا نؤمن بالله ، ونعلم تمام العلم أن القساوسة والملاك والبورجوازية ، نسبوا الأمور إلى هذا الاسم « الله » لتحقيق مآربهم الاستغلالية .

ويواصل « لينين » خطابه ، فيقول :

ونحن ننكر كل أخلاق لا يكون مصدرها المدارك الإنسانية ، ونجاهر بأنها جميعًا مجرد غش وخداع وكبت ، لعقول العمال والفلاحين ، وأن القوة التى

تسيطر على أخلاقنا ، هى مصلحة طائفتنا ، فدستور أخلاقنا مستمد من حركة كفاحنا العمالية ..

لقد كان المجتمع القديم قائمًا على أساس ظلم الملاك والرأسماليين للعمال والفلاحين . لذلك وجب علينا نسف هذا الأساس . ولكى يتسنى لنا ذلك لابد لنا من الاتحاد ، وأن نوجد هذا الاتحاد بأيدينا ؛ فإن الله لن يخلقه ، إنما الذى يستطيع خلقه هم البرولتاريا وحدهم ..

ومما لاشك فيه أن الأساليب الشيوعية تتخذ من أسسها أن « الغاية تبرر الوسيلة » . وهذا وحده أعظم برهان على أن الانحطاط الخلقى عندهم شىء عام ، بل ومعترف به رسميًّا ، وأنه القاعدة ..

ونأتى الآن إلى النظام المالى فى الشيوعية ، يقول الأستاذ « دى جوير » :

لقد نسج الشيوعيون نظرية فى السرقة . سموها « تعويض المحرومين » . والواقع أنه كلما جد انقلاب شيوعى فى قطر من الأقطار . أوكلما افترس الشيوعيون قطرًا ، فإنهم مباشرة يبعثون جوًّا من الإرهاب الرهيب . وذلك بالتنكيل والقتل وسفك الدماء والسحل ، وفى ظل هذا الإرهاب يؤممون الثروة ، كل الثروة : « البنوك والأموال التى فيها ، العمارات وماتحتويه من رياش ، الأرض الزراعية وماعليها من زرع وثمار » .

إنهم يجردون الأفراد والأسر من كل مايملكون .

ثم إنهم لايبيحون للأفراد أن يبنوا أنفسهم من جديد ، وإنما يؤممون : التجارة ، والمصانع ، والمعامل ، والاستيراد ، والتصدير ...

وبكل ذلك يجعلون الفرد تابعًا ذليلا لهم ، يستجدى منهم لقمة العيش بالطاعة العمياء لهم . وإلا فإنه – إن لم يمت قتلا أو تعذيبًا – يموت جوعًا ..

إن كل ماكسبه الشيوعيون من شيوعيتهم أنهم صاروا آلات فى جهاز الإنتاج العام ، وكانوا بشرًا ذوى إرادة ..

وكانت النتيجة استعباد الأفراد عن طريق سرقة كل مايمتلكون سرقة بالإكراه والإرهاب . يقول الرئيس « جمال عبد الناصر » عن الشيوعيين : كفروا بالفرد ، لأن الفرد فى دين الشيوعية لاكيان له ولا حقيقة لوجوده ، وإنما الكيان للدولة ..

وكفروا بالحرية . لأن الحرية نوع من إيمان الفرد بذاته ، وليس للفرد فى النظام الشيوعى ذات ولا إرادة ..

وكفروا بالمساواة فى نظام الدولة لأن الدولة فى دستور الشيوعية طبقات تنتظم فى هرم ، يتربع على قمته فرد ، ويحتشد ملايين الشعب فى القاعدة ..

لقد ألغت الشيوعية الملكية ، وهى بذلك تتعارض جذريًّا مع الإسلام . وذلك أن الإسلام يقر الملكية الفردية دون حدود ، مادامت فى إطار المبادئ الإسلامية ، ولقد شرَّع للعقود والوسائل ، التى يتأتى عن تطبيقها الثراء ، وشرع للعقود والوسائل الناقلة للملك من يد إلى يد مثل البيع والشراء والهبة والوصية . وقد بين فى تفصيل دقيق كتابة الدين ، كيف تكون وبين فى تفصيل دقيق نظام المواريث ، ونصيب كل وارث .

ولقد تاجر الصحابة فى عهد الرسول ﷺ ، وباعوا واشتروا ، وامتلكوا العقارات ، وزرعوا البساتين الواسعة . وكان البعض منهم من أصحاب الملايين ، وكان ذلك كله تحت سمع الرسول ﷺ وبصره ، فلم يضع لهم حدودًا ، اللهم إلا المبادئ العامة للدين الإسلامى ، وهى أن يكون الكسب من حلال ، وأن يؤدى حق الله تعالى فيه ..

ولقد نهى رسول الله ﷺ عن اغتصاب مال المسلم . فى أسلوب عنيف فيه تهديد ووعيد .. عن أبى حرة الرقاشى عن عمه قال :

كنت آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ فى أوسط أيام التشريق ، أذود عنه الناس ، فقال : ياأيها الناس . أتدرون فى أى شهر أنتم ، وفى أى يوم أنتم ، وفى أى بلد أنتم ؟

قالوا : فى يوم حرام ، وشهر حرام . وبلد حرام .

قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا . فى بلدكم هذا . إلى أن تلقوه ..

ثم قال : اسمعوا منى تعيشوا :

ألا لا تظلموا . ألا لا تظلموا . ألا لا تظلموا .. إنه لايحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه ..

ويؤمن الشيوعيون بأن النظام الاقتصادى هو الذى يوجه المجتمع ويؤثر فيه . وأن التاريخ كله فى سيره هو ثمرة – فى اتجاهاته وتطوره – للعامل الاقتصادى لاغير ..

على ذلك بنوا مذهبهم .

إنها الحتمية التاريخية التى تقوم على العامل الاقتصادى .. وحينما تنهار هذه النظرية فإن حتمية الشيوعيين التاريخية تنهار معها . وقد انهارت النظرية . وبين المؤرخون . بل والاقتصاديون أنفسهم بطلانها ..

ومن طرائف الأقدار أن « انجلز » نفسه اعترف بفسادها ، وهدم بنفسه – وهو أب من آباء الشيوعية – ما لايزال الشيوعيون يتمسكون به مع فساده

وبطلانه ، وهدم الشيوعية هدمًا حاسمًا ، لأنها تقوم على أساس النظام المالى الذى تملكه الدولة وتوجهه ، وفى ذلك ننقل الآتى :

لقد اعترف « انجلز » صاحب «كارل ماركس » وزميله فى الجهاد فى رسالة كتبها إلى بلوخ ، قبل وفاته بخمس سنوات ، بأنه هو « وماركس » قد بالغا فى تقدير أهمية الأسباب الاقتصادية ، وأكد مضمون هذه الرسالة لصاحبه « ستار كنبرج » فقال :

« ماركس » : وأنا مسئول جزئيًّا عن حقيقة أنه فى بعض الأوقات ، لقد أعطى أتباعنا أهمية للعامل الاقتصادى أكثر مما يستحق .. ولقد اضطررنا إلى تأكيد صفته المركزية فى معارضتنا لخصومنا الذين كانوا ينكرونه ، ولم يكن هناك وقت ولا مكان ولا فرصة لإنصاف العوامل الأخرى فى الحركة التاريخية ..

بعد ذلك كله ننقل كلمة نفيسة للدكتور « مصطفى محمود » فى كتابه القيم : « الماركسية والإسلام » يقول :

وقد نص الإسلام على الملكية الفردية ، وأباحها لحكمة عميقة ، هى أن مصادرة الملكية الفردية ، تصادر فى الوقت نفسه الدرع والسند الذى يستند إليه الفرد ، ليواجه السلطة الغاشمة وينتقدها ، فهى الشكل الخارجى للكرامة والأمان ، وحينما تصادر السلطة الملكية الفردية ، وتحول الناس إلى أجراء وتجعل أرزاقهم وأقواتهم فى يدها ، فإنها تحولهم بجرة قلم إلى قطيع ، يستحيل على واحد منهم أن يكون له رأى مخالف ..

ونتحدث الآن بتوفيق الله عن صاحب المذهب «كارل ماركس » :

إن سيرة «كارل ماركس» أصبحت الآن معروفة واضحة ، يقر بها أنصاره ، كما يقر بها خصومه ، ولا اختلاف فيها بينهما :

إنه كارل « ماركس » اليهودى ابن اليهودى « هرشل » ، وابن اليهودية وزوج اليهودية « جينى » ..

ورأى والده أن تدينه بالدين اليهودى يحجب عنه بعض حطام الدنيا ، فارتد عن دينه ، وأعلن المسيحية . ونشأ ابنه وهو يرى أن حطام الدنيا يسمح لأبيه أن يرتد ..

وهانت عند الابن القيم والمثل والفضائل ، ومن ذلك – وهو الداعى إلى العمل – تكاسله عن العمل لكسب العيش تكاسلا ملحوظًا .

لقد استمر عالة على أبيه يرهقه دائمًا بطلب النقود ، حتى ضاق أبوه بذلك ذرعًا ، وأعلن له ذلك ، ولما توفى أبوه وترك ميراثًا استنفد نصيبه ، ثم أخذ يرهق أمه وأخته بطلب النقود حتى ضاقتا به ذرعًا ..

وأحب أصدقاؤه أن يوفروا له شيئًا من الكسب الشريف فاتفقوا له مع ناشر أعطاه مبلغًا من المال فى مقابل تأليف كتاب معين ، وأخذ المال وأنفقه ولم يؤلف الكتاب . ثم باع الكتاب المتفق عليه لناشر آخر ، وأخذ الثمن فأنفقه ولم يؤلف الكتاب ..

ولقد عاش بعد ذلك طيلة حياته على حساب زميله وشريكه فى الرأى « إنجلز » ، وكان يخرج له كل عام مايكفيه ، ولكنه ماكان يكتفى بذلك وإنما كان يطلب دائمًا المزيد دون حياء أو خجل .

ولم تكن لياليه بريئة . وإنما كان الكثير منها ليالى حمراء وكانت على حساب الآخرين ، ولانحب أن نطيل فى وصف حياته ، فإنها لاتستحق الإطالة ، وإنما نحب أن نضع تحت نظر القارئ صورة دقيقة له . كتبها أحد من اتصلوا به عن

قرب ، ونقلها الأستاذ الكبير «عباس محمود العقاد» فى كتابه النفيس « الشيوعية والإنسانية » :

« يقول « باكونين » هذا عن « ماركس » ، وهو يعقد المقارنة بينه وبين « ماتسيني » ، زعيم الوطنية الإيطالية : يحب «كارل» نفسه أضعاف حبه لأصدقائه ومريديه .... ومامن صداقة تصمد لحظة ، إذا مسته لحظة فى غروره وكبريائه ، وأيسر من ذلك جدًّا أن يغفر الإساءة أو الخيانة لدعوته الفلسفية ، ورسالته الاجتماعية . . فإنه ينظر إلى هذه الخيانة نظرته إلى علامة من علامات القصور العقلى ، أو علامات امتيازه على صديقه ، فيرى فيها نوعًا من التسلية المرضية ، وقد يكون هذا الصديق أحب إليه وأدنى إلى قلبه ، لأنه يأمن أن يكون مزاحمًا له فى رسالته ، أو منافسًا على القمة العليا فى شهرته . . . غير أنه لا يغتفر أبدًا أصغر الإساءات إلى شخصيته ، ولابد لك من أن تعبده وتتخذه وثنًا تصلى بين يديه إن أردت أن تظفر بمودته ، أو لابد لك من أن تخافه وتهابه ، إن أردت أن يحتملك ويصبر عليك . . وهواه دائمًا أن يحيط نفسه بالأقزام والحجاب والمتزلفين ، ولا يمنع ذلك ، أن يحيط به بعض ذوى الأقدار . . .

أما على الجملة فلك أن تقول : إن أصحاب « ماركس » تندر بينهم صراحة الصداقة ، وتكثر بينهم الدسائس والمناورات ، وهم متفاهمون ضمنًا على المكايدة والصراع والمساومة على مرضاة الغرور المتبادل بين زمرتهم ، ولا موضع لشعور الصداقة حيث يعمل الغرور وتسود الأثرة . فكلهم على حذر ، وكلهم متوقع للتضحية به والقضاء عليه وليست جماعة « ماركس » إلا جماعة التزلف المشترك ، وهو بينهم الموزع الأكبر للأقدار والدرجات . والمحور الأكبر كذلك

للغدر والكيد والدسيسة ، لايتفتح أبدًا ولايستريح للصراحة يومًا ، بل يحرض أبدً على اضطهاد من يستريب فيه . أو من يقوده سوء حظه إلى التقصير عن إكباره ، كما ينبغى له من الإكبار فى نظره ، ومتى بدا منه الإذن فى الاضطهاد ، فلا حدود للخسة واللؤم فى الذريعة التى فى لندن وباريس – وفى ألمانيا قبل كل شىء – يتذرعون بها لقضاء إربه .

ولما كان هو نفسه يهوديًّا ، فقد أحاط نفسه فى لندن وباريس ، وفى ألمانيا قبل كل شىء بنفر من اليهود الصغار على حظ متفاوت من المقدرة على الدس والنشاط والمغامرة ، كسائر أمثالهم ، حيث كانوا بين الموظفين التجاريين وعمال المصارف والمشتغلين بالأدب والسياسة أو هم بعبارة أخرى سماسرة فى الأدب والسياسة . كزملائهم السماسرة فى الصفقات التجارية ، قدم فى المصرف . والقدم الأخرى فى مراكز الحركة الاجتماعية ولهم عشيرة كبرى فى ألمانيا بين أدباء الصحف الدورية .. وإن هؤلاء المتأدبين من اليهود لذوو براعة فى صناعة الجبن والواقعية والإيغار والمكيدة ، تسمعهم يقولون كأنهم يترددون : يشاع ، يزعمون ، لعله غير صحيح .. ثم يقذفونهم بأخبث التهم فى الوجوه .

وقد أعلن « باكونين » صواب « ماركس » فى بعض المسائل الفلسفية والسياسية التى اختلفا عليها ، وأن « ماركس » لايتورع عن الانتقام من مخالفيه . باختلاق التهم عليهم ، وأنه لايتورع عن الانتقام من أحد يرتفع إلى المكانة العليا فى الدعوة الاجتماعية ، وإن لم يكن بينهما نقاش على الخطإ والصواب ، وقال وهو يذكر حملة « ماركس » على « برودون » إن « ماركس » ينطوى على خليقتين ذميمتين : الغرور والغيرة ، وماكان بغضه لـ « برودون » إلا أنه مشهور جدير بالشهرة ، ومامن مسبة يحجم عن صبها على رأسه ، لأنه أنانى

يفرط فى أنانيته لحد الجنون ، وتسمعه يتحدث قائلا : أفكارى .. آرائى .. وينسى أن الأفكار والآراء ليست ملكًا لأحد على التخصيص ، وإن أصلح الآراء لهى تلك التى تتمخض عنها البديهة العامة » . اهـ .

هذا هو المذهب : إلحاد فى العقيدة : وسرقة بالإكراه فى المال ، وانحطاط فى الأخلاق .

أما صاحب المذهب فإنه ينطوى على الغرور والغيرة .

ومع هاتين الصفتين فإنك إذا أردت أن تظفر بمودته ، فلابد من أن تعبده وتتخذه وثنًا تصلى بين يديه .

أما أصحابه فإنه يندر بينهم صراحة الصداقة ، وتكثر بينهم الدسائس .. وصدق الله العظيم إذ يقول :

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فإنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يَشاء وَيَهْدى مَنْ يَشاءُ) .

الفصل الثالث

أصل الشيوعية
الصهيونية والشيوعية

نحب أن نبدأ – بتوفيق الله – بموضوع مُعَمّى على كثير من المسلمين ، وهو موضوع العلاقة بين الشيوعيين والصهيونية .

هل للشيوعية صلة بالصهيونية ؟

هل بينهما ود متبادل ؟

هل هما متحدان ؟

هل الشيوعية وليدة الصهيونية ؟

وقبل أن نذكر بعض الآراء فى ذلك ، نضع أمام القارئ الحقائق الآتية دون تدخل فيها :

إنها حقائق من سجل القضاء المصرى ، وفى سجل القضاء المصرى الكثير من أمثالها . ولعل البعض أقدر منا على إيرادها ، ولعل الذى يحاول كشفها يكون له نصيب موفور من الثواب ، لأنه يكشف عن حقيقة خافية على كثير من المسلمين ، ومن الخير أن يعلموها .

فى فصل بعنوان « النشاط الشيوعى فى بلادنا » ، من كتاب « حقيقة الشيوعية » . الذى كتب مقدمته الرئيس « جمال عبد الناصر » يقول المؤلف :

يتزعم هذه المنظمات الشيوعية فى مصر بعض الإسرائيليين . يقيم أكثرهم فى

الوقت الحاضر بالخارج . وهم من اليهود الذين كانوا فى مصر واعتقلوا فى أثناء حرب فلسطين ، ثم أبعد بعضهم وطلب بعضهم التصريح له بمغادرة البلاد بصفة نهائية . فسمح له بذلك . ويقيم بعضهم فى الوقت الحاضر بفرنسا . وبعضهم فى إيطاليا . وبعضهم فى إسرائيل ..

يدار من الخارج :

وقد ضبطت فى بعض قضايا الشيوعية فى مصر أوراق وتقارير ومكاتبات تثبت أن النشاط الشيوعى فى مصر يدار من الخارج . فقد عثر بتاريخ ٣ / ١١ / ١٩٥٣ م بمسكن بعض المتهمين بالشيوعية على كثير من التقارير الواردة إليه من « هنرى كوريل » الإسرائيلى . تحوى تعليمات للشيوعيين فى مصر .

كما عثر مع « ناعومى كانيل » الإسرائيلية التى قبض عليها فى اليوم نفسه على تقارير شيوعية واردة لها من الخارج ، وبعضها من إسرائيل ..

وضبط بالقاهرة فى يوم ٤ / ١٠ / ١٩٥٤ م مع « هنرى فيتا كوهين » وهو إسرائيلى أيضًا تقارير عن النشاط الشيوعى فى مصر . وكانت معدة لإرسالها إلى الخارج .

وعثر مع زميله « جوزيف دافيد أوزمو » الإسرائيلى كذلك على كثير من التقارير الواردة له من « هنرى كوريل » فى تواريخ مختلفة . وتحوى توجيهات للشيوعيين فى مصر ..

وقد ضبطت السلطات الإيطالية « بميلانو » فى أواخر سنة ١٩٥٠ خلية شيوعية يكونها بعض الإسرائيليين الذين كانوا يقيمون فى مصر ثم غادروها

وأقاموا هناك ، وثبت من الأوراق المضبوطة أنهم يديرون بعض المنظمات الشيوعية فى مصر ، وأنهم على صلة بالهيئات الشيوعية فى كل من إيطاليا وفرنسا ، كما تبين أن لهم زملاء من الإسرائيليين يقيمون فى فرنسا ، ويعملون لتصيد الشبان المصريين الذين يسافرون إليها لطلب العلم . وقد اعترف أحد الأشخاص الذين قبض عليهم فى إحدى القضايا الشيوعية بمصر أنه أقام بأوربا نحو ستة أشهر متنقلا بين النمسا وإيطاليا وفرنسا على نفقة الشيوعيين هناك ، وبتوصية من الإسرائيلى « هنرى كوريل » .

وتصدر المنظمات الشيوعية فى مصر نشرات تتضمن مهاجمة نظام الحكم والقائمين على رأس الحكومة ، وهدفها تعبئة الشعور العام ضد الحكومة . والعمل على قلب نظام الحكم وإقامة حكومة شيوعية ، تخضع لتوجيهات موسكو والصهيونية .

وقيمة هذا النص ليس فى أنه من السجلات القضائية فقط ، وإنما لأنه أيضًا ذكر فى كتاب من كتب مقدمة للرئيس الراحل « جمال عبد الناصر » . ولعن فيها الشيوعية والشيوعيين .

وكون اليهود هم الذين عملوا جاهدين فى نشر الشيوعية فى مصر لاغرابة فيه ، وهو تأييد لما يوقن به كثير من المفكرين .

رأى الملك فيصل :

إن كثيرًا من زعماء العالم العربى والعالم الغربى يوقنون بأن الشيوعية وليدة الصهيونية ، وهَاكَ رأى المرحوم « الملك فيصل » :

فى صباح يوم الأربعاء ٢٥ صفر ١٣٩١ هـ - ٢١ أبريل ١٩٧١ م استقبل

الملك فيصل بقصر الرئاسة بالرياض فريق طلبة الكلية الحربية بواشطنون ، يصحبهم السفير الأمريكى بالمملكة السعودية وحضر المقابلة الأمير خالد بن عبد العزيز ولى العهد حينذاك ، ونائب رئيس مجلس الوزراء . وقال الملك فيصل :

« إن الشيوعية والصهيونية ، لاتتيحان الفرصة للعالم لتحقيق أهدافه من التقدم والاستقرار ، والعالم يحتاج إلى البناء لا الهدم والتخريب ، ولكن الشيوعية والصهيونية لم تتركا لنا الفرصة لبناء بلادنا وشعوبنا .

وعندما نقول الصهيونية والشيوعية نذكر اسمين . ولكن الحقيقة أن الصهيونية . ولَدت الشيوعية ، وهدفها الأساسى هو التخريب والتحطيم ، ولسوء الحظ يجدون الفرصة فى أكثر من بلد فى العالم لتخريبه .

وقد بدأت الشيوعية والصهيونية الآن فى إدخال نظريات هدامة للتأثير على النشء الجديد لينشأ ضعيفًا لا يعتمد عليه كما أنهم أفشوا التحلل الخلقى والنظريات التخريبية للتأثير على المجتمع والأخلاق » ..

نجاح « ماركس » :

أما كتاب مواثيق الصهيونيين المسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » ، فإنه يعلن فى صراحة قائلا :

« نحن (الصهيونيون) الذين رتبنا نجاح كارل ماركس » .

إن «كارل ماركس» يهودى أمًّا وأبًا . ومن أسرة يهودية عريقة فى اليهودية .

ولقد تزعم هذا اليهودى فريقًا من يهود ألمانيا عرفوا بالشيوعيين . وبدأت

بهم الشيوعية وقد تتساءل لماذا رتب اليهود نجاحه ؟

إنهم أقاموه أولا ثم رتبوا نجاحه بالدعاية وبالكتب وبالصحف ، وبكل وسائل الدعاية والنشر : لماذا ؟ .

إن الصهيونيين لهم منهجهم بالنسبة للآخرين ، أى بالنسبة لمن يسمونهم الأمميين . وهم كل من عدا اليهود ومنهجهم متعدد الزوايا ومن كبريات هذه الزوايا إفسادهم بكل وسيلة ممكنة للمجتمعات .

إن اليهود يهدفون — من بين أهدافهم إلى إفساد الدين على المتدينين مسلمين ومسيحيين ... ، ومن وراء إفساد الدين ، إفساد الأخلاق ، لأنه لا أخلاق بغير دين . فإذا فسدت الأخلاق ودب التحلل فى الأمم وزالت مناعتها ، فإنه يسهل السيطرة عليها . . ومن هنا ولدت الشيوعية . وذلك أن الشيوعية تفسد الدين على أصحاب الديانات ، وتفسد الأخلاق أينما حلت ، وتهدم النظام الدينى الاقتصادى رأسًا على عقب ، وأن كل من يدين بها ويعتقد أنها حق ، فإن إيمانه بها يتضمن لا مناص إيمانه بأن أوضاع دينه ليست صحيحة إنه — شعر أو لم يشعر — ينكر دينه وينكر أخلاقه وينكر ما شرعه الدين من نظام اقتصادى ، وينكر ماشرعه الدين من نظام للمجتمع ، إنه كافر إنه كافر ألف فى المائة ، بل مليون فى المائة ، ولذلك رتب الصهيونيون نجاح « كارل ماركس » ، لقد صنعوه كما تصنع المزيفات وساندوه ، كما هو الشأن فى ضرورة مساندة المزيفات ، والمزيفات لا بقاء لها ، ولذلك ستزول الشيوعية الحديثة كما زالت شيوعية « مزدك » ، وكما زال كل مذهب منحرف .

هى أمها !

ولقد كتب الكاتب الكبير « فرانك . ل . بريتون » فى كتابه « الصهيونية والشيوعية » مايلى :

وأما الحقيقة الراهنة فهى أن الصهيونية والشيوعية صنوان منبعها واحد وغايتهما واحدة . وماالختلافها الظاهر سوى ترتيب مؤقت اقتضاه النجاح فى السعى إلى الغاية الواحدة حتى إذا تحققت الثقة بالنجاح الكامل اتحدتا معًا للسيطرة على العالم ... إلخ .

« أما روبرت وليامز » صاحب كتاب « اليهودى فى أمريكا » فإنه ينتهى من بحثه النفسى بقوله :

« إن الصهيونية ليست شقيقة الشيوعية فحسب . بل هى أمها ، وكل من درس تاريخ الشيوعية يعلم أن الذين كونوها وساروا بها إلى وضعها الراهن أغلبهم – خلال تاريخها – يهود متعصبون لليهودية أى أنهم صهيونيون .

وللأستاذ فرانك كريتون كلمات فى غاية العمق – إنه يسمى الصهيونية والشيوعية « فئتى اليهود » . وهما فئة الصهيونيين وفئة الشيوعيين . ويقول :

« وليست الشيوعية والصهيونية سوى مظهرين لقومية واحدة هى القومية اليهودية » .

وهذه الكلمات الأخيرة هى النتيجة التى نحب أن يعرفها المسلمون جميعًا وينتج مما تقدم أن الشيوعى ليس ولاؤه لوطنه وإنما هو للشيوعية . وولاء الشيوعية هو للصهيونية . وباب التوبة مفتوح ومن تاب تاب الله عليه .

الفصل الرابع

الطابع العام للشيوعية

فى هذا الفصل نروى قصة تصور الطابع العام للشيوعية . ونذكر تعليقاً موجزًا عليها ..

والقصة قصة حقيقية ، حدثت فعلا ..

وهى قصة حديثة العهد نسبيًّا ..

وهى تهدم كل مايحاوله الشيوعيون من تبرئة الشيوعية من عداوة الدين ..

وصاحب هذه القصة أستاذ من أكبر أساتذة الطب ، مصرى تفخر به جامعاتنا . ويفخر به عالم الطب ، وقد حدثنى بها بنفسه ..

ذهب إلى روسيا لأمرين :

(ا) ليرى المعاهد الطبية التى يمكن أن يتدرب فيها طلبتنا المصريون .

(ب) ليلقى بعض المحاضرات عن نظرية اكتشفها فى عالم الطب : لها صداها . ولها رنينها وتقديرها ..

وأقاموا له فى « لينينجراد » حفل تكريم حضره اثنان وثلاثون من علماء الأكاديمية الطبية ..

وأخذ الكثير منهم يبدى إعجابه بأستاذنا الطبيب : متحدثًا عن المنهج العلمى . والطريقة المنهجية . والدقة فى استخراج النتائج ، والوصول إلى الغايات .

ولكن . . ولكن أسفنا – كما قالوا – شديد . . ذلك أنه بلغنا أنك متدين . .

وجرى الحوار الآتى :

قال صاحبنا : ولم أسفتم لتدينى ؟

قالوا : لأنك تؤمن بالخرافة . .

. . ماهى الخرافة التى أومن بها ؟

. . ماتسمونه : الله ، إنه خرافة ، إذ لا وجود له . .

. . إن عجبى أشد لسماع هذا الكلام من قمم العلم ، ذلك أن العلم يؤكد فى كل قوانينه وقواعده وجود الله ، فترابط الكون وتماسكه ، وجعل بعضه علة لبعض ، وذلك فى بلايين بلايين الأشياء ، إن كل ذلك يؤكد ألا مصادفة ، وإذا انعدمت المصادفة فلابد من القول بوجود إله . .

. . كل ذلك لا أساس له عندنا .

. . ماهو الأساس الذى تؤمنون به ؟

. . إننا نؤمن بالإنسان . فالإنسان حقيقة ، والغيبيات خرافة . .

. . إننى أيضًا أومن بالإنسان ، إنى أومن بالإنسان اتباعًا لدينى وسيرًا على مبادئه . . ولقد كرم الإسلام الإنسان بما لم يكرمه مذهب قديم أو حديث ووصل به إلى أن جعله خليفة الله فى أرضه . وترجم لهم قوله تعالى :

(وإذْ قال رَبُّكَ لِلْمَلائكة إنِّى جاعِلٌ فى الأَرض خَليفَةً) .

فالإنسان خليفة الله فى الأرض ، وأى منزلة أسمى بالنسبة للإنسان من أن يكون خليفة الله فى الأرض ؟

ويقول سبحانه : (ولقد كرمنا بنى آدم) . .

الإنسان فى الإسلام مكرم ، وهو خليفة الله ..

وهذه الخلافة مشروطة ، إنها تتضمن كشرط لابد منه ألاّ يستعبد الإنسان ، وأن يتحرر الإنسان من عبودية الإنسان .. فكلاهما خليفة الله ، والخلافة تحرير وانطلاق وليست ذلة وعبودية ..

ثم سجود الملائكة للإنسان الذى ذكره القرآن الكريم ، مارأيكم فيه ؟ ..

أليس هو تكريم أسمى مايكون التكريم ؟

وبهت العلماء وقالوا :

هذا الكلام من أين أتيت به ؟

من القرآن ..

أهو الكتاب الذى ألفه « محمد » ؟

إن « محمدًا » لم يؤلف كتابًا ، وماكان يدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن القرآن حق من لدن الله ، علمه الله لرسوله ، ونحن نتبعه ..

واستمر صاحبنا فى الحديث فقال :

ولم يأت القرآن بشىء يتعارض مع العلم .

وفى القرآن آيات علمية لا يعرفها العرب ، وبعضها فسر فى الزمن الحديث مثل آيات الخلق ، وأطوار الجنين وترتيب هذه الأطوار فى الخلق .

(وَلَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فى قَرارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظامًا ، فَكَسَوْنا العِظامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشأْناهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ) .

ونزول المطر يشرحه القرآن بأحدث نظرية اكتشفت فى السنوات الأخيرة .

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) .

إن صلة الرياح بنزول المطر ، أصبحت الآن معروفة ، ولم تصبح معروفة إلا فى هذه السنوات الأخيرة ..

وأراد صاحبنا أن يستمر فى الشرح والتوضيح ..

ولكن .. انتفض رئيس الأكاديمية ، وهب واقفاً . وقال منفعلا :

مع احترامى لضيفنا العربى ، لابد أن أوقف هذا السيل من الكلام الفارغ ، وإنى أقول لكم بكل قوة ، إن كل ماقاله كلام فارغ ..

والنصر للشيوعية ، وإن ثلثى العالم الآن شيوعيون وسيصير الثلث الثالث شيوعيًّا إن قريبًا وإن بعيدًا .

لابد أن أنهى هذه الجلسة ، انتهت الجلسة ..

واستعمل رئيس الأكاديمية لفظ «كلام فارغ» دون حياء أو خجل ، أو مجاملة للضيف ..

ومن هو الضيف؟ .. إنه أستاذ فى الطب .. من مفاخر الطب ولكن رئيس الأكاديمية يسير على منهج الشيوعية ..

ومنهج الشيوعية – فى العقيدة – حدده «ماركس ، ولينين» فى كلمات ، يقول «ماركس» :

«لاإله . والحياة مادة» ..

«ما الدين والأخلاق والقانون فى نظر البروليتار ، إلا آراء بورجوازية» ..

ورسالة البروليتاريا هى القضاء على الدين والداعين إليه » ..

« إن الدين هو أفيون الفقراء » ..

ويقول « لينين » :

« الإلحاد جزء طبيعى من الماركسية لاينفصل عنها » ..

بعد كل ذلك يمكننا جميعًا أن نقول مع الأستاذ جلال كشك :

« الماركسية دعوة لا دينية » ..

والماركسى الذى يزعم أنه لا يعارض الدين : كاذب ..

والشيوعى الذى يثنى على الدين : منافق ..

والماركسية نظرية مادية ، والمادية تنكر الأديان .. المادية تؤمن بأسبقية المادة على الفكر ، والدين عندها فكرة صنعتها المادة ..

الفصل الخامس

المنهج الشيوعى

منذ سنوات مكثت بضعة شهور فى السودان ، وفى هذه الأثناء فى حفل عام . قام أحد الشيوعيين وهاجم رسول الله ﷺ ، فى ذاته الشريفة وفى أهل بيته . . ، وهاج إخواننا السودانيون ، وهاجوا وهم أهل عاطفة دينية طيبة ، وهم أهل خلق كريم وشعور صالح ، وكان رد الفعل قريباً .

وإذا بمنشور شيوعى يوجه إلى الشيوعيين ، ويشاء الله أن يكشف سترهم فيه :

يقول : إن هذا الدور من الهجوم لم يحن أوانه : وذلك أن السودان لم يهيأ بعد لمثل هذا الهجوم الذى سيأتى فى وقته المناسب ، وأمر المنشور الشيوعيين أن يبتعدوا على الهجوم المثير فى تلك الفترة إلى أن يهيأ الجو .

هناك إذن أدوار ، وهناك إذن تهيئة ، ماهى ؟ وكيف تكون ؟

إن من المعروف عند القاصى والدانى ، أن بين الشيوعية والدين عداءً مستحكمًا يمثله ماقاله أحد زعمائه :

« الدين أفيون الشعوب » . .

ويمثله ماقاله «كارل ماركس » اليهودى من أنه يجب أن يزول الدين من المجتمع . فلما قيل له :

ولكن الإنسان لابد له من عقيدة قال :

الهوهم بالمسارح فيتجه تفكيرهم نحو نجاح أو إخفاق المسرحية ونحو نجاح فلان فى دوره أو إخفاقه فيه أكثروا من المسارح فينصرف الناس عن الدين إليها .

ويمثله ماقرأناه أكثر من مرة ، وقد قرأته أنا أكثر من مرة فى جرائدنا نقلا عن الجرائد الشيوعية ، من أنها غاضبة لتهاون رجال الحكم فى تنفيذ الضربة الأخيرة فى القضاء على الدين .

وقضية عداوة الشيوعية للدين قضية لاينكرها إلا مراء أو منافق أو عميل أو جاهل !

وقد أحكم الشيوعيون الخطة : فى الدور الأول :

السخرية بعلماء الدين . بل السخرية بكل متدين ، والتهكم بهم ، وإظهارهم فى التمثيليات والمسرحيات والإذاعة والتليفزيون والصحافة بمظهر يثير الاستهزاء . . . ونقدهم ، والإلحاح فى نقدهم ، وتلفيق تهم ، واختراع تهم ، ثم إذاعة ما لفق وإعلان ما افترى حتى يصبح شعور الشعب هينًا بالنسبة للمتدينين والممثلين للإيمان .

وحينئذ يبدأ الدور الثانى وهو : مهاجمة الدين فى فروعه .

حتى إذا مافرغ هذا الدور ، أصبح المجتمع مستعدًا لمهاجمة الدين فى أركانه وإعلان الإلحاد سافرًا ، وتعليم الإلحاد جهرة ، والدعوة إليه بكل وسيلة ! !

وكل ذلك بدهى لا يحتاج إلى زيادة إيضاح .

وإذا أخذت رؤساء الحزب ، فلن تجد فيهم إلا ملحدًا .

وإذا أخذت أعضاء الحزب فلن تجد إلا من يدعو إلى الإلحاد .

وإذا وجد فيهم المتدين فهو مأمور بذلك مسخر فى مهمة معينة .

ولكن هذه الأدوار التى ذكرناها : إنما تنشأ وتستمر متوالية على الترتيب الذى ذكرناه إذا كان المجتمع لم يحدث فيه انقلاب شيوعى .

أما إذا حدث انقلاب شيوعى فى قطر من الأقطار ، فإن الأمر يختلف ، وذلك أنه منذ أول الانقلاب تعلن الحكومة أنها علمانية ، وتحت ستار العلمانية وفى ظل هذا الشعار تغلق الحكومة معاهد الدين ، وتلغى تدريس الدين فى المدارس ، وتمنع التبشير بالدين ، وتنكل فى قوة . وفى عنف بعلماء الدين وبكل متدين .

وهناك أمثلة لا تنكر فى كل قطر حدث فيه انقلاب شيوعى ، فمثلا هذه القطعة من قطر حبيب إلى نفوسنا التى استغلت وأصبحت قطرًا وحدها فيها انقلاب شيوعى .

لقد لاقى علماء الدين فيها من ألوان العذاب مالا يحصى : حتى أنه كان يربط أحدهم – وهو فى سن متقدمة . تخطى السبعين – فى سيارة تجره على الأرض وتسير به حتى يتمزق جسمه . ويتناثر قطعة قطعة !

ما ذنبه ؟ ما جريمته ؟ إنه يقول : ربى الله ، إنه متدين ، وفى هذه القطعة من القطر الذى نحبه ، والذى أثنى على إيمانه رسول الله ﷺ ، كان العالم يقتل ثم يؤمر أتباعه ومحبوه – تحت تهديد المدافع الرشاشة – أن يدوسوا على جثته وهو ميت .

وفى هذه القطعة هتكت أعراض ، وشردت أسر ، ونكل بكل متدين !

ثم هذا القطر الذى نعتز بإسلام شعبه ، وكنا نأمل فى مستقبل إسلامه الخير الكثير ، هذا القطر الذى حدث فيه انقلاب شيوعى ماذا حدث فيه ؟

وبماذا حدثتنا وكالات الأنباء عنه ؟

لقد بدأ فيه مباشرة إعلان العلمانية ، وإلغاء كل مايمكن أن يكون غير متناسق مع العلمانية ، ونضرب لذلك مثلا :

إن الله سبحانه وتعالى استفاض فى بيان الميراث وحدد الأنصبة : بالنصف والثلث ، والربع ، والسدس ، والثمن . . . إلخ ، وكان التحديد واضحًا لا لبس فيه ، والمحدد هو الله تعالى .

وكان من أقل درجات الإيمان أن يبين علماء الإسلام حكم الله فى الموضوع ، فكتبوا إلى زعيم الانقلاب يبينون حكم الله فى الموضوع ، فماذا كان منه ؟

لقد اتخذ بالنسبة لهم موقفًا أفظع ما تكون المواقف . موقفًا تستنكره الإنسانية أشد استنكار ، ويستنكره الدين ، ويستنكره شعور الأمى ، وشعور المتعلم .

لقد قتلهم أشنع قتلة لأنهم بينوا حكم الله .

والواقعة صحيحة تثبت منها – من المصادر الرسمية – قبل أن أخط كلمة فيها .

بماذا يمكن أن يوصف هذا العمل ؟

قتل من يبين حكم الله فى أمر من الأمور ... أذلك كفر من القاتل ؟

إنى أدع الحكم للقارئ !

أما البانيا :

ألبانيا التى كانت معقلا من معاقل الإسلام ، وخرجت الكثير من علمائه

الأتقياء ، فإن مساجدها خاوية على عروشها ، لقد أغلقت جميعها بالأقفال ، وألغيت معاهدها الدينية ، ومدارسها القرآنية ، وشرد الأتقياء فيها ، وكل متدين كان نصيبه إما القتل ، وإما التشريد ، وإما السجن ، وإما الفرار !

والمساجد فى روسيا كثير منها أصبح هياكل ومتاحف ، وبقى منها مايكفى ذرًّا للرماد فى العيون .

هذه هى الشيوعية : أهى على هذا الوضع إسلام ؟

أهى نصير للإسلام ؟

أم هى محطمة للتدين ؟

ومناصرها : أهو محب للإسلام ؟

أهو من المتقين ؟

أهو من المؤمنين ؟

أم هو من أعداء الله ورسوله ، إذ يناصرهم ويؤازرهم .

إن الله سبحانه يجيب عن ذلك فيقول سبحانه :

(لاتَجدُ قَوْمًا يؤْمِنُون بالله وَاليوم الآخِرِ ، يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُم أَوْ إخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتهُمْ ، أُولئكَ كَتَبَ فى قُلُوبِهُمُ الإيمانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوح مِنْهُ وَيُدْخِلُهمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالدِينَ فِيها رَضِىَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ أولَئِكَ حِزْبُ اللهِ ألا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفلِحُون) .

ولكننا لم نتحدث بعد عن الحرية المفقودة ، والمساواة المعدومة ، والدكتاتورية الطاغية ، والغش ، والخداع ، والرعب .

ولكن الذى ذكرناه إنما كان منهجًا بالنسبة للدين ، وللشيوعية مناهج متنوعة مختلفة بالنسبة لمختلف الحالات ، وإن فيها منهجًا فى إثارة القلاقل والاضطرابات ، من ذلك ماذكره صاحب كتاب « الشيوعية على حقيقتها » يقول :

« وجه لينين نظر العصبة إلى ضرورة الاتصال بالعمال اتصالا عمليًّا ، وإعطاء حركتهم نزعة سياسية ، وعلمها كيف تغتنم الفرص لإلقاء ضرباتها ، فكانت كلما قام إضراب فى مصنع من المصانع ، تبادر إلى إصدار النشرات الاشتراكية لاستفزاز العمال ، وإيغار صدورهم على أصحاب الأموال وعلى الحكومة ، بحجة أنها تحمل هذا الاستغلال ، وكانت النشرات توزع فى المصنع المضرب ، وفى غيره من المصانع فى وقت واحد ليكون للتحريض الأثر المطلوب .

ومن ذلك مايرسمه كاتب عن الخطة الشيوعية ، يقول :

« ولينفذ الشيوعيون الخطة الشيوعية التى تقضى بالتسلل إلى مختلف الطوائف والهيئات بالطرق الآتية :

١ – التسلل إلى الاتحادات والنقابات المهنية والعمل على السيطرة عليها ، ثم توجيهها توجيهاً يلائم أغراض الشيوعية العالمية .

٢ – التغلغل فى منظمات الطلبة والعمل على تزعم تكتلاتهم ، واستدراج أكبر عدد منهم للإيمان بالشيوعية كوسيلة للإصلاح .

٣ – تكوين جبهات مع الهيئات المعارضة للحكومة يكون لها برنامج متفق عليه ، وهدفها القضاء على نظام الحكم .

اصطلاحاتهم :

ومما يتصل بالمنهج أنهم يصطنعون صيغًا ويخترعون مصطلحات تشوه الواقع ، وتموه الحقائق ، وتخدع الذين يقعون فى حبائلهم ، وقد تنبه الكتاب الشرقيون والغربيون لذلك ونبهوا عليه ، فقالوا عن الشيوعيين :

إنهم يسمون ديكتاتورية الحزب الشيوعى الإرهابية « ديكتاتورية العمال الديمقراطية » .

ومصادرة أملاك المزارعين واستصفاء أموالهم بالإرهاب والإجاعة « التنازل الاختيارى عن الممتلكات للدولة » .

ويطلقون على التفاوت الصارخ لمستوى الحياة وأحوال المعيشة فى داخل الجمهورية السوفيتية « انتصار الواقعية الاشتراكية » .

ويسمون قتل من يشتبهون فى ولائهم ويشكون فى إخلاصهم « القضاء على أنصار الاستعمار الفاشى » .

ويسمون الأكاذيب التى يخترعونها ويذيعونها ، وحضهم العمال فى البلاد الديمقراطية على إفساد الآلات والتخريب والهدم وبث الرعب فى كل مكان « دفاع البروليتاريا عن أنفسهم ضد أعدائهم » .

ويسمون البؤس والشقاء والحرمان الذى يقاسيه الشعب الروسى « الجنة التى ينعم فيها الشعب فى أرض الاشتراكية » ! !

يقول « سيودى جويو » :

« لقد نسج الشيوعيون نظرية فى السرقة سموها : تعويض المحرومين » ..

ويقول الأستاذ مظهر :

لقد سموا السرقة تعويضاً للمحرومين .

وسموا المعدم محروماً .

وسموا الإمعة مغبونًا .

وسموا الفاشل مظلوماً .

وسموا الأخرق البليد عبدًا مأجورًا .

وسموا العاجز مستغلاً .

وسموا المتعطل خالقًا للثروة ومنشئًا للقيم الاقتصادية .

وسموا الدهماويين شعبًا .

وسموا الثوريين المتطرفين طلاب الهدم والتخريب ، وإراقة الدماء الذائدين عن حقوق الإنسان .

ويعقب الأستاذ مظهر على ذلك فيقول :

« كل هذه استثارة للأحقاد ، ووضع لمعانى الألفاظ فى غير موضعها تضليلا للناس وخلق تعريفات جديدة للكلمات توافق المزاج الشيوعى » .

الفصل السادس

أسلوب وقح وإلحاد سافر

إن الشيوعية فى جوهرها : أسلوب وفكر وعن هذين الأمرين نتحدث هنا .

يقول الأستاذ « لافالى » :

« إن لهجة التهييج والحقد التى يكتب بها الشيوعيون تهاريجهم الطنانة لأشبه شىء بنغمة الموت عند أكلة لحوم البشر » ..

إن لأكلة لحوم البشر نغمة معينة . عندما يكونون مشرفين على أكل لحوم فريسة من بنى البشر . ونغمتهم هذه التى لاإنسانية فيها ، والتى لا طابع لها إلا الحقد والتهييج أقرب شبه لها ، وأنسب تشبيه فيما يتعلق بها لهجة التهييج والحقد التى يكتب بها الشيوعيون ..

ولقد لاحظ المصريون فى الآونة الحاضرة موجة من تهاريجهم الطنانة . كما لاحظوا ذلك من قبل ، وكما سيلاحظونه من بعد .. وستقرأ لهم عما قليل وفيما بعد وباستمرار لهجة التهييج والحقد ، وستقرأ لهم باستمرار تهاريج طنانة لا تعدو أن تكون تهاريج ..

وتأمل فى لهجة التهييج عند الشيوعيين . وتأمل فيما يقوله الأستاذ « لافالى » ، فسترى التشبية دقيقًا كل الدقة ..

ومادام ديدنهم التهييج والحقد ، فإنهم يقولونك مالم تقل ، ويفترون عليك

ما أنت منه براء ، ويكتبون عناوين لا مضمون لها ، ويدعون عليك دعاوى عريضة أنت بعيد منها كل البعد ، ويحاولون الإساءة إليك بكل وسيلة وبكل أسلوب ، لا يتورعون عن الإسفاف المسف . إنها لهجة التهييج والحقد ، وإنها التهاريج الطنانة ..

وتتساءل لماذا هذا ؟ وعن التعليل .. إنني أرى تعليلا لذلك . . . .

ويرى الأستاذ « هارولد كوكس » فى كتابه « الحرية والاقتصاد » تعليلا آخر ولعلك حين تضم التعليلين الواحد إلى الآخر تكون قد أصبت الحقيقة ..

وإذا انتفى الدين ، وانتفت بانتفائه المثل العليا فإنه لا يتأتى فى تعاليم الشيوعية شىء مثالى أو رفيع ، إنها تستنصر جميع النزوات . وجميع الرذائل ، كالحسد والغيرة والشهوة . إنها تشجع ، أو على الأقل تجيز ، الإتلاف والشطط والخلاعة والإدمان ..

وغايتها : السلب والنهب .

وإذا تصفحت تاريخ الشيوعية فسترى حقيقة أنه ليس فيها شىء مثالى أو رفيع . وذلك أن المثل العليا إنما تكون ثمرة من ثمار التدين ، ومادام الشيوعيون قد أعلنوا أنه لا وجود لله تعالى ، وأن الدين أفيون مخدر للشعوب .. وماداموا قد أعلنوا الحرب ضد الدين ، فإنه لا يتأتى أن يكون فى تعاليمهم شىء مثالى أو رفيع ..

وأبدأ بتعليل الأستاذ «هارولد كوكس» ، إنه يقول : « ليس ... إلا استنصار جميع النزوات وجميع الرذائل ، والإتلاف على مختلف المجالات ..

ولقد شاهدنا ذلك ، وما زلنا نشاهد ، فى هذا الإتلاف الذى يحدث فى

وطننا العزيز ، وفى غيره من الأوطان العربية . بسبب التهاريج الطنانة ، وبسبب استنصار جميع النزوات . . » .

هذا هو تعليل الأستاذ « هارولد كوكس » .

أما تعليلنا نحن ، فإن انعدام المبادئ المثالية . والقيم الرفيعة : مرده إلى الإلحاد الذى بدأ مع بدء الشيوعية ، حينما قال كارل ماركس : « الدين أفيون الشعوب ويجب أن يزول » . .

وحينما قال لينين : « نحن لا نؤمن بوجود إله » .

ومنذ ذلك الحين – وهذا جوهر الشيوعية – ونظرة الشيوعيين إنما هى إلى الأرض ، إلى المادة . . لقد أخلدوا إلى الأرض لا يرفعون بصرهم عنها . واتبعوا أهواءهم . . وذلك أن كل من لا يسير على هدى من الدين ، وعلى صراط من الله ، فهو متبع لهواه . .

ولقد بين القرآن الكريم :

١ – أسباب الإلحاد الذى يغمر الشعور الشيوعى .

٢ – وثماره .

٣ – وطابع الشعور الملحد .

٤ – ومايشبهه الملحد الشيوعى من الحيوانات . .

وكل ذلك فى أسلوب رائع ، يقول تعالى :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الغاوِينَ . وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ

يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذٰلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا فَاقْصُص القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفكَّرُونَ)

(سورة الأعراف ١٧٥ - ١٧٦)

إن آيات الله محيطة بالإنسان من جميع أقطاره فالسماوات من آيات الله . والأرض من آيات الله ، والأشجار من آيات الله ، والأنهار والجبال والمحيطات والنجوم والكواكب . كل ذلك من آيات الله .

هذا الإبداع المحكم الذى يحيط بالإنسان من جميع أقطاره ، هذه الآيات التى تحيط بالناس أينما كانوا ، والتى تنادى بجلال الله وعظمته .. ، حاول بعض الناس الانسلاخ منها فلم يقروا بالألوهية الإقرار السليم .

والتعبير بالانسلاخ من أحكم وأدق وأروع مايكون ..

لقد حاولوا الانسلاخ منها ، وهى ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان بالإنسان ، وانسلخوا منها بعد لأى وعلى خلاف الفطرة .. وعلى وضع لا يتلاءم مع النظام الطبيعى ، وانسلخوا بذلك من محيط الألوهية ، إنهم خرجوا عن سرادق الألوهية ، وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله ، فتهيئوا بصنيعهم هذا ليكونوا من أتباع الشيطان ، وسهل على الشيطان غزوهم ، فغزاهم بخيله ورجله فكانوا من الغاوين ، ولو شاء الله لرفعهم بآياته ، ولكن العيب جاء منهم هم ، إذ أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم ..

ومثل من أخلد إلى الأرض واتبع هواه كمثل الكلب . إن تحمل عليه يلهث . وإن تتركه يلهث ..

ولكن لم يلهث فى كلتا الحالتين ؟

إن الذى أخلد إلى الأرض مهما بسط الله له فى الرزق . فهو ضيق بحياته ، لأنه لا يطمئن إلى شىء روحى يقنعه ، والمادة – مهما أوتى الإنسان منها – فإنها – مادام الإنسان جشعًا – لا تنتهى إلى إرضائه ، لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لطلب ثانيًا ، ولو كان له واديان لطلب ثالثًا . . وإذا ضيق الله عليه فى الرزق فإنه يلهث ، وذلك واضح . .

ومن آثر اتباع الهوى فإنه لا يعتمد على هاد يطمئنه ، ولا على اطمئنان يسكنه ، وهو ضيق بالحياة ذرعًا ، لأن هواه لاتحده حدود ، ولأن خياله لا يكبح جماحه مبدأ . ولا خلق كريم . ولا مثل أعلى ثابت . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، وإن تتركه يلهث . .

وهذا المثل ، إنما هو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، وقد أنزله الله تعالى ليتفكر فيه الناس ، وليتعظوا به ، ولعله يقود إلى الهداية والرشاد هؤلاء الذين انحرفوا عنهما . .

الكلاب – إذن – تلهث إذا حملت عليها ، وإذا تركتها فإنها تلهث أيضا . .

* * *

إن الشيوعيين لا دين لهم .

لقد أعلنوا فى بيانهم الرسمى «ميثاقهم» وهو ما سموه «المانفستو الشيوعى» أى الميثاق الشيوعى الذى يلتزمونه . وهو ميثاق رسمى صدر عن الهيئة الرسمية للحزب ، قالوا : « الدستور والأخلاق والدين خدعة بورجوازية تتستر من ورائها البورجوازية من أجل مطامعها » .

ويقول لينين : « إننا لا نؤمن بالله . ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب

الكنيسة والإقطاعيين والبورجوازية ، لا يخاطبوننا باسم الله إلا استغلالا » .

ومن قبل لينين . قال كارل ماركس اليهودى :

إن الدين أفيون الشعوب ، إنه يخدرها بالأمل فى الآخرة والجنة ونحن لا نؤمن بذلك .

ومن بعد لينين ينكر ستالين وجود الله ويقول فى صراحة : إن العالم يسير دون أن يكون له مسير إنه يقول :

« العالم يسير ويتطور ، وسيره وتطوره يتبع قوانين المادة وهو ليس بحاجة لأى عقل كلى يسيره » ، أى أنه ليس بحاجة إلى إله خالق مهيمن عليم خبير .

هذا وليعلم المؤمنون جميعًا المسلمون منهم والمسيحيون . أن الإلحاد والكفر يدرس كمادة أساسية فى الجامعات الروسية وفيه امتحان آخر العام ، وقد أرادوا أن يفرضوا دراسة الإلحاد والكفر على الطلبة المسلمين الذين يدرسون فى الاتحاد السوفيتى . فأبى المصريون منهم إباءً شديدًا ، واحتجوا لدى السفارة المصرية . ولما رأى الشيوعيون عزمهم المصمم أعفوهم من دراسة الإلحاد والكفر . ولكنهم كانوا يدرسونها لكل من وجدوا فيه – من الوافدين – استعدادًا لأن يكون عميلا ، ولم يوجد والحمد لله فى الطلبة المصريين من كان عنده هذا الاستعداد .

ومادام الدين قد انتفى وشاع تدريس الإلحاد ، فإنه لا غرابة فى قصة نختم بها هذا الحديث .

لقد كنت فى الحج عام ١٩٧٢ . وفى نهاية الحج ، حدد الملك فيصل – أسبغ الله عليه شآبيب رحمته – موعدًا للقائه وذهبت أنا وبعثة الشرف فى الحج والسفير المصرى وتحدث جلالة الملك عن الإيمان وعما يُدَبَّر للمسلمين للقضاء على

الإسلام ، وذكر الشيوعية كعامل مدمر مخرب لكل القيم والمثل الإسلامية . ثم قال :

لقد وصل الأمر بالشيوعيين فى الإقليم الفلانى – لقد ذكر اسم الإقليم – أن علقت فى الشوارع لوحات تقول :

« لاإله إلا الشيوعية » .

وكان منا دهشة وكان منا استغراب ، ولكن جلالة الملك أكد الخبر ومضت الأيام والتقيت بكثير من المقيمين فى ذلك الإقليم فأكدوا لى الخبر ، وبالأمس القريب كنت مع أحدهم فقال : ليس الأمر كذلك فحسب ، وإنما كتب على جدران المساجد عبارات الإلحاد والكفر أيضًا .

هذه هى الشيوعية : إلحاد هو من صميم المذهب ، وكفر من جوهر الدعوة .

فإذا مازعم إنسان أنه شيوعى ومسلم فإنه منافق . أو عميل . أو جاهل . لا يعرف شيوعية ولا إسلامًا ، وإنما تسوقه النقود تصب فى يديه ، فينادى بما يطلبه أصحاب النقود .

وبعد : فما من شك أن أسلوب الشيوعية فى النقاش أسلوب وقح ، وأن مفهوم الشيوعية يتعارض جذريًّا مع الإسلام . والله سبحانه يقول :

(ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه) .

ويقول : (إنَّ الدِّينَ عند الله الإسلام) .

ويقول : (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) .

الفصل السابع

الإسلام برىء من صراع الطبقات

إن الله سبحانه وتعالى حينما حدد الصلة بين المسلم والمسلم قال :

(إنما المؤمنون إخوة) .

وهذه الأخوة بدأ ينفذها رسول الله ﷺ لأول عهده بالرسالة الإسلامية واستمر يتحدث عنها كلما سنحت الفرصة طيلة حياته .

ومن أحاديثه الشريفة التى تعتبر دررًا فى المعانى السامية للأخلاق قوله ﷺ فيما رواه الشيخان . رضى الله عنهما ، عن « أنس » رضى الله عنه :

« لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

وفيما رواه الشيخان عن « ابن عمر » رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرَّج عن مسلم كربة ، فرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » .

وفيما رواه « الترمذى » عن « أبى هريرة » رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولايخذله ، كل المسلم على المسلم

حرام . عرضه وماله ودمه . التقوى هاهنا - وأشار إلى صدره - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » .

ويستفيض رسول الله ﷺ فيما ينبثق عن معانى « الأخوة » فيقول فيما رواه الشيخان عن « أبى موسى » رضى الله عنه :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » .

ويقول فيما رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما :

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

إن صلة المسلمين بعضهم ببعض صلة حب ومودة ورحمة وتعاطف ، وليس فيها من قرب أو من بعد صراع طبقات أو حث على صراع طبقات .

وقد نزلت الرسالة الإسلامية رحمة للعالمين . يقول الله تعالى :

(وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

إنها رسالة رحمة فى أساليبها وأسسها . وهى رسالة رحمة فى أهدافها وغاياتها ، فهل ترى فى جو الرحمة موضعًا لصراع الطبقات ؟

إن مبدأ صراع الطبقات يتعارض تعارضًا تامًّا مع مبادئ الإسلام ، وإن المذهب الذى يقوم على بعث الحقد والكراهية فى نفوس العمال ضد أصحاب المشاريع ، وفى نفوس الأميين ضد المثقفين ، وفى نفوس العاطلين ضد العاملين ، والمذهب الذى يثير اضطرابًا فى جو العمل ، وفى جو الطلبة ، وفى جو النقابات ، إنما هو مذهب يتعارض جذريًّا مع الجو الإسلامى ، ويتعارض جذريًّا مع مصلحة الوطن .

ومع هذه البدهيات فى الجو الإسلامى ، فإنه لابد من بيان حقيقة سافرة

هى حقيقة الجهاد من أجل الوصول بالمجتمع إلى القمة التى عبر الله تعالى عنها بقوله :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

ومن أوصاف المؤمنين أنهم :

(الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) .

وأحاديث رسول الله ﷺ فى ذلك كثيرة موفورة نكتفى منها بالحديث الشريف التالى :

عن ابن « مسعود » رضى الله عنه – فيما أخرجه الإمام مسلم – أن رسول الله ﷺ قال :

« مامن نبى بعثه الله فى أمة قبلى ، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون به ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

هذا الجهاد هو جهاد الحق فى مواجهة الباطل ، وهو جهاد الخير فى مواجهة الشر ، وهو جهاد الفضيلة فى مواجهة الرذيلة .

إنه جهاد فى مجال العقيدة ، وهو جهاد فى مجال الأخلاق ، وهو جهاد فى

مجال التشريع ، وهو جهاد فى مجال نظام المجتمع ، وهو جهاد لتنفيذ الإسلام جملة وتفصيلا .

إنه جهاد يعبر رسول الله ﷺ عن التمسك به بقوله الخالد :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وهذا الجهاد إنما يقوم به على مر الزمن طائفة يعبر عنها رسول الله ﷺ بقوله فيما رواه « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » .

وفى رواية أخرى عن « جابر » رضى الله عنه فيما أخرجه مسلم :

« لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » .

وفى رواية ثالثة فيما أخرجه البخارى ، ومسلم عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » وهذه الأقوال بمعنى واحد :

إن جهادهم لله وفى سبيل الله ، يستمدون مبادئه من القرآن الكريم ، ومن أقواله ﷺ . إنهم يستمدونها من إيمانهم بما أنزل الله تعالى على لسان خير الرسل ، صاحب هذه الرسالة الخالدة الخاتمة .

وهم يصارعون الباطل أينما وجدوه : يصارعونه فى العقيدة ، وفى كل مذهب مادى منحرف عن عقيدة الإسلام ، سواء تمثل فى ماركس أو فى لينين المنكرين لوجود الله تعالى ، ويصارعون الباطل فى كل المذاهب الأخلاقية التى تتنافى مع الإسلام سواء وجدت هذه المذاهب فى الشرق أو فى الغرب .

وهم يصارعون كل المذاهب الاقتصادية التى تهجم على المجتمع فتجرد جميع أفراده من كل مايملكون : عتادًا ومالا . . . ، وكل ما اكتسبه الفرد بجهده وعرقه ، ولا تسمح له بمزاولة أى نشاط مالى حر .

وهم يستمسكون بالحق فى وجه كل منحرف عن التشريع الإسلامى : مدنيًّا كان هذا التشريع أو جنائيًّا .

وهذه الطائفة التى تقوم على الحق ، فيها الأثرياء والفقراء ، وفيها المثقفون فى أى مكان كانوا والكتاب من مختلف الطبقات .

إن سمة هذه الطائفة الأصيلة نضالها فى سبيل الحق .

وما كانت ثورة مولانا الإمام « الحسين » رضى الله عنه إلا ثورة العدالة فى وجه الظلم ، وثورة الحق فى وجه الباطل ، وما كانت قط صراع طبقات .

وبعد : فيقول رسول الله ﷺ :

« والله لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » .

ويقول الله تعالى :

(ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) .

الفصل الثامن

الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة

إن مواجهة الإسلام للتحديات المادية المعاصرة لم تكنْ أول مواجهة له فى تاريخ الدعوة إليه ، وإنما الوحى الذى نزل على الرسول عليه السلام وهو بمكة على مدى ثلاثة عشر عاماً تركز أكثره على مقاومة المادية وتوضيح آثارها الضارة على البشرية ، وعلى الروابط الاجتماعية بين الأفراد والشعوب معًا .

والمادية إذ تنكر القيم العليا فى حياة الإنسان تنكر فى مقدمتها : الإيمان بالله واليوم الآخر :

(الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا ، أولئك فى ضلال بعيد) .

وإذ تؤمن بشىء فى حياة الأفراد والناس ، تؤمن بالمال فى جمعه وتكديسه ، وفى البخل والشح فى إنفاقه على الآخرين أصحاب الحاجة ، والعبث والترف فيه فى مصلحة الذات وحدها :

(كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لَمًّا ،وتحبون المال حبًّا جمًّا) .

وإذ تحدد طريقًا أو مسلكًا فى الحياة ، تحدد طريق الأنانية ، والنفعية والانتهازية والنفاق.

(وإذا قيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ قال الَّذينَ كَفَرُوا لِلَّذين آمنوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ، إن أنتُمْ إلاَّ فى ضَلال مُبينٍ) .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذين نَافَقُوا يَقُولُونَ لإخوانهم الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْل الكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَن مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وإنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصرنَّكُمْ واللهُ يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكاذِبُون لَئِن أُخْرِجُوا لايخْرُجُون مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبارَ ، ثُمَّ لايُنْصَرُونَ) .

* * *

والإسلام إذ يواجه المادية صراحة يواجهها فى الكشف عن مساوئها وعن نتائجها على البشرية فى سلوك الأفراد ، وفى علاقات بعضهم ببعض ثم يواجهها مرة أخرى من خلال دعوته إلى الروابط الإنسانية فى بناء المجتمع وفى بقائه مستقرًّا ، لاتهزه عواصف الإلحاد والسلوك اللا أخلاقى القائم على الحقد ، وإباحة سفك الدماء ، وانتهاك الحرمات الشخصية للأفراد فى أموالهم ، وأعراضهم ، وخصوصياتهم فى مساكنهم .

والإسلام يحدد فى بناء المجتمع بناءً سليمًا خمسة مبادئ :

المبدأ الأول : نظرته إلى المال ، وهى نظرة لاتلغى الملكية الفردية ، ولكن تُشرك فى منفعته مع المالك غيره من أصحاب الحاجة إلى المجتمع . وإشراك صاحب الحاجة فى منفعة المال الخاص يقوم على أساس استخلاف الله للمالك فيما يملك :

(آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) .

والمالك إذن مرتبط فى إنماء المال ، وفى إنفاقه على السواء بما أوصى به صاحب الاستخلاف وهو الله تعالى ، وقد أوصى الله ، جل جلاله ، فى جانب التمليك بحرمة السرقة ، والغصب ، وأكل أموال الناس بالباطل على العموم ، وأوصى فى جانب الإنماء بحرمة الربا ، ومنع الغرر فى العقود ، وأوصى فى جانب الإنفاق بالاعتدال بين التقتير والبسط ، وبمنعه فى محرم يُرتكب ، فوظيفة المال وظيفة اجتماعية يتعلق بها حق كثيرين ، وإن قام على تملك فرد واحد ، ولذا كان حد السرقة هو قطع يد السارق ، إن تأكدت عدم حاجة السارق إلى المال ، لأن سرقته تنطوى على اعتداء على حقوق كثير من الأفراد : المالك والمنتفعين به .

ونظرة الإسلام إلى المال على أن ملكيته ملكية خاصة ، ومنفعته منفعة عامة ، تضمنها قول الله تعالى :

(والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق)

أى فيكم الغنى والفقير فى ملكية المال .. وفيكم صاحب اليسار الكبير والمحروم ، هذا قانون طبيعى .

(فما الذين فُضِّلُوا بِرَادِّى رزقهم على ماملكت أيمانهم ، فَهُمْ فيه سواء) .

فإن أعطى الذين يملكون المال مَنْ لا ينبغى أن يملكونه ، وهم : الأرقاء مثلا فيما مضى ، شيئًا من المال ، فإنهم لايعطونهم فى واقع الأمر مما يملكون هم ، وإنما يعطونهم حقهم فى المنفعة ، فهم فيها جميعًا – من يملك ومن لا يملك – أى فهم متساوون فى حق منفعة المال .

والإسلام يتفادى – بنظرته هذا إلى المال – طغيان رأس المال ، والحيلولة دون إنفاقه فى ترف ولهو ، كما قد تؤدى إلى ذلك حرية التملك للمال والحرية فى إنفاقه ، فى النظام الرأسمالى الحر ، كما يتفادى التواكل والتسيب ، والإهمال فى إنماء المال أو إنفاقه ، كما قد يؤدى إلى ذلك نقل الملكية الفردية ، إلى ملكية الدولة فى النظام الآخر المقابل للنظام الرأسمالى .

والإسلام بنظرته هذه إلى المال يحقق وظيفة المال الاجتماعية ، وهى توزيع منفعته على الكل ، من غير أن يضعف فى الإنسان الدافع إلى الملكية وسعيه إلى تحصيل المال .

المبدأ الثانى : العدل ، سواء بإشراك صاحب الحاجة فى منفعة المال المملوك لغيره ، أو بمنع الربا ، والغرر فى العقود ، وقبل هذا وذاك بتحقيق التوازن فى الفرد بين متطلبات غرائزه ، ومنطق الحكمة فيه وهو العقل ، فليس فى نظامه مايمنع الإنسان من الاستمتاع بزينة هذه الحياة الدنيا وطيباتها . . ، ليس فيه مايحول بين الرجل والمرأة من مباشرة العلاقة الزوجية :

(يابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِد ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا

وَلا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التى أَخْرَجَ لِعبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فى الحياة الدُّنيا خَالِصَةً يَوْمَ القيامة) .

والأمر الذى يمنعه فقط هو الإسراف فى المتعة ، لأنه يؤدى حتمًا إلى الفساد فى العلاقات الإنسانية من جانب وإلى ضياع الفرد المستمتع من جانب آخر : فى صحته وفى سلوكه . . ، وفى تقديره للأمور .

والمبدأ الثالث : الإحسان ، وهو الإعطاء مما لدى الإنسان : من مال . . وعلم . . وجاه . . وقوة . . . وصحة . إلى صاحب الحاجة إلى المال ، أو إلى العلم ، أو إلى الجاه ، أو إلى القوة ، أو إلى الصحة ، فى غير مقابل ، هو أن يعطى الإنسان مما لديه من إنسانية ممثلة فى أى أمر من ذلك ، معينًا به غيره من أصحاب الحاجة إليه دون أن ينتظر منه جزاءً . إذ يقول الله تعالى :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان)

فيأمر بالعدل والإحسان معًا . فإنه يأمر بهما لأن العدل وحده فى المجتمع لا يحقق الترابط الإنسانى بين الأفراد فيه . فهو خطوة تمهيدية لمباشرة الإحسان بعده . . والإحسان هو الذى يشعر بالترابط الإنسانى بين القوى والضعيف ، والغنى والمحروم ، والعالم والجاهل ، والصحيح والمريض . فالفرد إذا لم يتعود العدل لا يأتى بالإحسان إطلاقًا .

والمبدأ الرابع : فى بناء المجتمع الإنسانى فى نظر الإسلام هو توفير الاعتبار البشرى لكل فرد فيه . أى مساواة جميع الأفراد فى الاعتبار البشرى والكرامة

الإنسانية . فلا الوظيفة . . ، ولا العمل . . ، ولا الحسب والشرف . . ، ولا العرق والعنصر ، ولاالغنى والثروة . . ، لاشيء فى ذلك . ولاغيره يفرق ، فى نظر الإسلام ، بين قيمة فرد وآخر . فالكل سواسية كأسنان المشط . ولهذا ينهى القرآن من أن يسخر إنسان من إنسان ، كما فى قول الله تعالى :

(يٰأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب) .

ومن أجل ذلك لا يعرف الإسلام الطبقية . ولا التفرقة العنصرية . وإنما التفضيل عند الله بين فرد وآخر بعد المساواة فى القيمة الإنسانية يكون بالمستوى الإنسانى :

(يأَيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) .

والتقوى هى تجنب المساوئ ، والفساد ، والعبث ، والظلم ، والاعتداء ، مع العمل لخير الإنسانية.

والإسلام من أجل ذلك لا يعرف صراعًا طبقيًّا ، ولا دمويًّا . . بل إن اختلفت مجموعة من الأفراد فى المجتمع مع مجموعة أخرى فيه وباشرت القتال معها ، فإن الإسلام يدعو المسلمين جميعًا إلى أن يتدخلوا :

أولا : بقتال الفئة التي اعتدت حتى ينتهى اعتداؤها .

وثانيًا : بعد وقف القتال بإصلاح الأمر بين المجموعتين ، على أساس من العدل ، والأخوة معاً فيما بينهم .

(وإنْ طائِفَتانِ مِنَ المُؤْمنينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بيْنَهُما ، فإنْ بَغَتْ إحْداهُما عَلَى الأُخْرَى فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إلى أَمْرِ اللهِ ، فَإنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بالعَدلِ ، وَأَقْسِطُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسطين ، إنما المُؤْمِنون إخوة فَأَصلِحُوا بَيْنَ أخَوَيْكُمْ ، واتقوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون) .

والإصلاح بالعدل الذى تطلبه الآية هنا هو الإصلاح القائم على رعاية الحقوق والواجبات ، فكل حق يؤخذ مقابله واجب يؤدى ، وأداء الواجب ينطوى على توصيل حق لصاحبه . فإذا كان رب العمل يجب عليه أن يؤدى أجر العمل للعامل ، فإن على العامل أن يؤدى حق رب العمل فيما كلف به من عمل ، سواء فى كمه أو فى نوعه .

والمبدأ الخامس : إن الإسلام يقدر العمل كما يقدر العبادة لله وحده . والسعى نحو العمل يجب أن يؤدى ، كالسعى إلى الصلاة يجب أن يؤدى كذلك ، ولايكتفى بأحدهما عن الآخر قال الله تعالى :

(يـأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا نودى لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْم الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إلَى ذِكرِ اللهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ، فَإذا قُضِيَت الصَّلاةُ فانْتَشِرُوا فى الأَرضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَاذْكروا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكم تُفْلِحُونَ) .

* * *

وهكذا ، المجتمع الإسلامى هو مجتمع إنسانى فى روابطه :

(ا) هو مجتمع ينحى عنه طغيان المال والعبث به . كما ينحى عن المال فى إنمائه وإنفاقه : التواكل ، والتسيب ، والإهمال .

(ب) هو مجتمع يعدل فى توزيع منفعة المال ، كما يبعد الخداع والغرر ، والربا فى معاملات الناس المالية بعضهم مع بعض .

(جـ) هو مجتمع يطلب الإحسان والعطاء فى غير مقابل ، ممن عنده فضل المال ، أو العلم ، أو الجاه أو القوة إلى من هم فى حاجة إلى ذلك .

(د) هو مجتمع يوفر الاعتبار البشرى لكل فرد فيه ويسوى بين الأفراد جميعًا فى القيمة الإنسانية لا يعرف العنصرية ، ولا الشعوبية ، ولا التفرقة على أساس اللون ، أو الحسب ، أو المال ، وتفضيل بعضهم على بعض عند الله بالتقوى ، وتجنب الاعتداء والظلم والطغيان والمنكر .

(هـ) هو مجتمع جعل العمل فى مرتبة العبادة . فكلاهما فى نظره واجب الأداء .

(و) هو مجتمع يقرن الحق بالواجب . فالواجب يؤدى والحق يؤخذ . وليس لديه مكان لحق يؤخذ دون أن يؤدى فى مقابله واجب ..

* * *

إن الحضارة المادية القائمة اليوم على تقدم العلم ، وتقدم الصناعة ، فى

حاجة ماسة إلى المستوى الإنسانى الذى يطلبه الإسلام ، ويعمل من أجله فى علاقات الأفراد والشعوب ، حتى تكون هذه الحضارة لخير البشرية وازدهارها ، وإسعاد الأفراد ودفع مشقة الجوع ، والمرض ، والخوف من المستقبل . إن هذه الحضارة حتى الآن لتهديد البشرية والإنذار بفنائها .. إنها للإرهاب والردع . كما يقولون .

والإسلام الذى يدعو إلى احترام الاعتبار البشرى ، ويبعد أى عامل آخر وراءه فى تقويم الأفراد والشعوب ، هو دين الإنسانية ودين السلام : لا يعرف الحقد ، ولا الصراع على أساس منه كما لا يعرف سفك الدماء فى إقناع الناس به ، قال الله عز وجل :

(قُلْ يأَيُّها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وماأنا عليكم بوكيل) .

الفصل التاسع

فى غيبة التشريع الإسلامى

هذا الإسلام الذى نشأت عليه والذى أحمد الله حمدًا جزيلا على هذه النعمة الكبرى التى لا تعدلها نعمة ، قد طبق وخرج عن أن يكون مجرد مبادئ إلى أن أصبح واقعًا ، فأنتج بعقائده، وأخلاقه وتشريعه خير أمة أخرجت للناس ، واستمر الإسلام يطبق التشريع الإلهى المعصوم عدة قرون ، إلى أن أُنشئ فى مصر ماسمى بالمحاكم المختلطة ، وتخلت فيها عن التشريع الإسلامى ، وفى هذه الفترة بالذات بدأ الاحتلال وبدأ التخلى كلية عن التشريع الإسلامى ، فإنه حينما احتل المستعمرون أرض الإسلام بدءوا يهدمون كل مايقوى الشعور الإسلامى فى النفوس ، ومن أجل ذلك غيروا القوانين الإسلامية ، وأتوا بقوانين أوربية ، ألزموا بها أهل الأوطان المحتلة ، وأتوا بقضاة من بلادهم يحكمون بقوانينهم ، وينشرون تشريعهم ، ولم يكتفوا بذلك ، وإنما أنشئوا مدارس لتعليم القوانين الأوربية ، وأصبحت هذه المدارس كليات حينما أنشئت الجامعات ، هى : كليات الحقوق ، وهذه الكليات تدرس القوانين الأوربية ، وتنفق عليها الدولة لتخرج قضاة ووكلاء نيابة ومحامين تخصصوا فى التشريع الأوربى ، واستمر الأمر كذلك السنين الطويلة ، فبدا على مر الزمن وكأنه أمر طبيعى ، وأصبح انفصال المسلمين عند شريعتهم ، وإحلال شريعة أوربا محلها

امرًا عاديًّا ، ولا يجدون غضاضة فى إنفاق الأموال الطائلة على كليات تفصلهم عن تشريعهم الإسلامى ..

وما من شك فى أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم أيام أن كان الاستعمار جاثمًا على صدور الأمم الإسلامية يأمر فيها وينهى ، ولكن الاستعمار قد خذله الله وانهزم ، ورجع المستعمرون إلى بلادهم ، وكان من الطبيعى أن يزيل المسلمون آثار الاستعمار فى : التعليم الذى وضع المستعمر برامجه لتخرج مجرد موظفين ..

وفى اللغة التى كان يحاول أن يقضى عليها كما فعل فى الجزائر ..
وفى الأخلاق التى حاول أن ينزل بها إلى مستوى لا تنهض معه أمة ...
وفى التشريع الذى جعله أوربيًّا وأحله محل شريعة الإسلام .

ومهما تكن مقاومة آثار الاستعمار فى ميادين مختلفة مما أفسده ، فإن مقاومة هذه الآثار وإزالتها فى مجال التشريع ، لا نجد لها أثرًا فى وزارات العدل فى مختلف الأقطار الإسلامية ، ولا نجد لها أثرًا فى دوائر القضاء ..

ومن سخرية الأقدار أن يقول قائل : وأين القانون الإسلامى الذى نحكم به ؟

إن القانون الإسلامى فى كتب الفقه الإسلامى ، وكتب الفقه هذه ، كتب عربية ألفاظها عربية ، وجملها عربية ، وخطها عربى ..

ولقد وصل الأمر بالاستعمار أن صاغ خريجى كليات الحقوق ، بحيث لايفهمون بعد الليسانس كتابًا عربيًّا فى المواد التشريعية ، وليس الأمر بغريب ؟ ..

أتدرى أيها القارئ الكريم أن جدول التدريس فى كليات الحقوق ،

يخصص عشرين محاضرة فى الأسبوع للقوانين الأوربية ، ومحاضرتين فقط للشريعة الإسلامية ؟ ...

أترى لو أنشئت هذه الكليات فى فرنسا ، أو فى إنجلترا ، أكانت تفعل أكثر من ذلك ؟ وهذه الكليات هى السر فى تخلفنا فى مجال التشريع ، وذلك لأنها دفعتنا بالتبعية للمشرعين الغربيين ندور فى فلكهم ، ونسير على خطواتهم ...

والتشريع الإسلامى من مفاخر الحضارة الإسلامية ، ورجال من نوابغ المفكرين فى العالم ، لكننا الآن – بعد ذلك النبوغ وتلك العبقرية – قد أصبحنا أتباعًا مقلدين ...

وهذا الموضوع أطرحه أمام القادة ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا فيما يتعلق بهذه الكليات ....

ولكن السؤال الملحّ الذى يطرح نفسه بعد ذلك ، هو ماحدث فى غيبة التشريع الإسلامى ماذا حدث ؟ شر كله ...

وإننى حينما أتحدث عن فترة غيبة التشريع الإسلامى التى مازالت مستمرة ، لاأتحدث عن مصر وحدها ، وإنما أتحدث عن كل الدول التى غاب عنها التشريع الإسلامى ومازال غائبًا ..

أتحدث عن كل من الدول التى تنتسب إلى الإسلام ، وقد ألغت شريعة الله فيها . ماذا حدث فى غيبة التشريع الإسلامى ؟

١ – حدث كل هذا الرجس الذى نراه ونشاهده أينما سرنا :

فى المعاملات ، وفى السلوك ، وفى العقيدة ، وفى الاستهتار بالقيم الدينية استهتارًا بلغ من شأنه أن أصبح الإلحاد فى دين الله من الأمور التى تمر

فلا تسترعى الانتباه ؟ الإلحاد فى دين الله كفرًا وارتدادًا . والإلحاد فى دين الله استهتارًا بالقيم الدينية ...

٢. – والإلحاد فى دين الله جدلا فى الحدود القاطعة التى فرضها الله عقابًا على الجرائم . وإذا أخذنا الآن بعض الأمثلة فإننا نقول :

إن قطع يد السارق أمر فرضه الله لا خلاف فيه . وهو علاج ناجع ضد السرقة ، ويكفى أن يرى الناس الجد فى التنفيذ ، يكفى أن تقطع يد سارق أو اثنين أو عدد لا يصل إلى أن يعد على أصابع اليد ، فتمتنع عن السرقة نهائيًا .

وقد تمر أعوام لا تقطع فيها يد ، وذلك أن « طابع الحد » يجعل كل من تسول له نفسه السرقة ينظر إلى يده فيتخيلها مقطوعة . فيرهب ويهرب عن مجرد التفكير فى الأمر ...

ولكن ذوى التفكير المنحرف . يهرجون بأن الأيدى سيقطع كثير منها فتكون البطالة ، وتقل الأيدى العاملة ، ويقل الإنتاج ، ويستمرون فى هذا التهريج كلما دعا داع إلى كتاب الله ..

وفى غيبة التشريع الإسلامى أنشأت الدول المستعمرة فى بعض الأقطار الإسلامية مزارع ومصانع لإنتاج الخمور ، والخمر على حد الوصف فى القرآن :

(رجس من عمل الشيطان) ..

قليلها حرام ، وكثيرها حرام ، واتخاذها كدواء حرام ، فما جعل الله دواء أمتى – كما قال رسول الله ﷺ – فيما حرم عليها . . . وقد ذهب الاستعمار إلى غير رجعة ، وكان من الواجب على هذه الدول أن تغير الوضع الاقتصادى فيها على المزارع والمصانع التى أعدت من قبل لإنتاج الخمر .. فلابد من تحريم ما وصفه الله بأنه رجس من عمل الشيطان فى كل الدول الإسلامية ..

٣ – وفى غيبة التشريع الإسلامى ، كان هذا الطوفان من العرى ، ومن فتنة الجنس ، ومن هذه الأفلام التى تثير الغرائز وتفسد الشباب ، والتى تنفق عليها الدول أموالا طائلة وتخسر الملايين فى سبيل ذلك ....

ومن المصائب التى تبكى ، أن يفكر فى إنشاء المسارح فى الأحياء الدينية . وفى شهر رمضان وكأن إنشاء مسرح للمطربين والمطربات و ... و ... من صميم الدين ؟ وكان الأولى أن يقام سرادق للقرآن أو الدعوة الإسلامية فى المناسبات الدينية ، وفى كل الأوقات .

٤ – وفى غيبة التشريع الإسلامى كان الرِّبا ، وكثرت الرشوة والاختلاسات ، وكان كل هذا الرجس الذى تعيش فيه بعض الأقطار وللنظر إلى كلمات الله تعالى ، فنجده سبحانه يقول :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزلَ اللهُ فَأولئِكَ هُم الظَّالِمُونَ) .

ويقول : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فأولئك هُمُ الفاسِقونَ) ...

ويقول : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ الله فَأولُئكَ هُمُ الكافِرونَ)

ويقول : (فلا وَربك لايؤمِنُون حتَّى يُحَكّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجدُوا فى أَنْفُسِهم حَرجًا مِمَّا قَضَيْت ويُسَلِّمُوا تَسْليمًا) .

والواقع أن الحكم بما أنزل الله هو إقامة حدود الله ، والله سبحانه وتعالى يقول فى الصفات عن المؤمنين : (والحافِظُونَ لِحُدودِ الله)

وحفظ حدود الله ، وإقامة حدود الله . إنما هى لكل إنسان بحسب موقعه فى المجتمع ...

فإذا ما طبق المجتمع حدود الله والتزمها ، فإن الله سبحانه يمده بنصر دائم ، وهو سبحانه يمد بهذا النصر الفرد إذا التزم حدود الله ، ويمد به المجتمع إذا طبق حدود الله : وقد أبان الله سبحانه وتعالى ذلك ، إنه سبحانه يقول :

(ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرهُ إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزيزٌ . الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُم فى الأَرْضِ أقاموا الصَّلاةَ ، وآتوا الزَّكاة ، وأمَرُوا بِالمَعْروف وَنَهوا عن المُنْكَر ، ولله عَاقِبةُ الأمورِ) ..

أما دوام النصر فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنه :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا) .

وما من شك فى أن النصر من عند الله وحده :

(وماالنصر إلا من عند الله) .

وما من شك فى أنه إذا نصر الله فلا غالب لمن نصره :

(إن ينصركم الله فلا غالب لكم) ..

ولقد وضع سبحانه قوانين للنصر ، ووضع قوانين لدوام النصر ، وكلها تتركز فى طاعته فيما أمر ، وفى الانتهاء عما نهى ..

أيها الإخوة المؤمنون ، إن قوله تعالى :

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) ..

يجب أن يدوى دائمًا فى آذاننا ، وأن يكون دائمًا على ألسنتنا ، وأن تمتلئ به قلوبنا وأن نحقق التقوى ...

وإن الذين يحبون أن يكونوا فى عداد من رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لن يصلوا إلى هذا الرضوان إلا إذا عملوا على نشر كلمة الله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، والطريق أمامهم مفتوح للعمل والنشاط ..

ويكفى إرادة الخير ، ونية الخير ، ليصلوا إلى مرضاة الله ، وليكونوا فى زمرة من رضى الله عنهم ورضوا عنه ويكونوا من حزب الله .

(ألا إن حزب الله هم المفلحون) .

وبعد :

فلا ريب فى أن جهادنا المقدس للنهوض بالمجتمع ، كل ذلك لم يفته بعد ، ومن أجل الوصول بجهادنا إلى غايته التى نرجوه لها ، وهى تطبيق الإسلام بجميع كلياته وجزئياته ، يجب على كل منا أن يتحمل مسئوليته فى ذلك بحسب موقعه فى المجتمع .

إن القرآن الكريم يستعمل مادة « أمر » حينما يتحدث عن مسئولية كل منا تجاه المجتمع الإسلامى :

(تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) ..

والرسول ﷺ يستعمل « أمر » كذلك .... عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » ...

(رواه الترمذى وحسنه)

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« مامن نبى بعثه الله فى أمة قبلى ، إلا كان له من أمته حوارَيون وأصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف عن بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، وما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » ..

فإذا ما تحمل كل منا مسئوليته بحسب موقعه فى المجتمع ، عاد أمر الأمة الإسلامية إلى ماكان عليه : قوة وعزة ومرضاة لله تعالى ولرسوله ﷺ .

خـــاتمـة

فى أسس النهوض بالمجتمع الإسلامى

إلى أين نتجه ؟

ماهو الطريق ؟

كيف نبنى أمتنا ؟

كيف ننهض بوطننا ؟

هذه الموضوعات فرضتها ظروف الأمم الشرقية التى تحررت من الاستعمار . وقد تحدث عنها الكثير من الكتاب ، والمفكرين ، والمحاضرين فى بلادنا .

وكانت الأفكار تأتى دائمًا مرتبطة بأوربا ، فكان بعضهم يعلن فى صراحة لاخفاء فيها :

أن الطريق هو أن نتبع أوربا خطوة بخطوة ، وأن نسير على نسقها ، إنها حضارة أثبتت جدارتها وتغلبت وأصبحت مسيطرة . فإذا أردنا أن ننهض بأمتنا ، فما علينا إلا أن نسير بحسب هذه التجربة التى سارت فيها أوربا ، فكانت حضارتها مسيطرة غلابة متفوقة .

ويأتى آخرون يقولون فى صراحة لا لبس فيها أيضًا : إن هذه الحضارة أشقت الإنسانية . هذه الفكرة نفسها – كونها أشقت الإنسانية – أعلنها بعض

الأوربيين أنفسهم. إن الحضارة الأوربية أشقت الإنسانية. هذه الحروب المتوالية ، هذا الدمار المخرب ، هذا الامتصاص لدماء الشعوب الذى تفعله الحضارة الأوربية ... إنها لم تدع بيتا ليس فيه مأتم ، ولا قطرًا هادئًا ، ووسائل الدمار والخراب والتنكيل التى تخترع كل يوم فى صور رهيبة ... إن كل ذلك يفرض علينا فيما رأى هؤلاء أن نرفض هذه الحضارة ، نرفضها كلية ، وإذا كان الألوف يريدون أن يقبلوها موضوعًا وأسلوبًا ، وعلمًا ومنهجًا ، فإن هؤلاء الآخرين يحبون أن يرفضوها موضوعًا ومنهجًا وأسلوبًا ، ولكن كيف يتأتى ذلك ؟ أيتأتى أن تقطع صلتك بالطائرات ، بالمواصلات ، بالصيدلة ، بالطب ، بالهندسة ، بالزراعة ، بهذه الآلات التى تخترع كل يوم ، بالأدوية . . . إن ذلك إذا نظرنا يمينًا أو يسارًا نجده فى كل بيت ، وفى كل شارع ، وفى كل بلد ، وفى كل حى ، وفى كل مدينة .

ففكرة رفض الحضارة الأوربية ، تعتبر عادة فكرة تشبه أن تكون مستحيلة ، وهى على كل حال غير منطقية ويتناقض الرأيان : الرأى الذى يقبلها ككل ، والرأى الذى يرفضها ككل ، وينبع عن ذلك رأى ثالث ، كان عادة هو الرأى الذى ينال الاستحسان ، والذى يستسيغه المجتمعون أو القارئون للمقالات .

هذا الرأى الثالث يقول : إن الحضارة الأوربية فيها الصالح وفيها الطالح ، وفيها السيئ وفيها الحسن ، وينبغى ، إذن ، إذا أردنا أن ننهض مستفيدين بتجارب الغرب ، أن نكون ناقدين لتجارب الغرب ، فاحصين لتجارب الغرب ، مختبرين لتجارب الغرب ، وينبغى أن نأخذ من هذه الحضارة الأوربية الصالح منها ، ونترك الفاسد منها .

وكان هذا الرأى يسود بعد أن ترفض الآراء الأخرى . والحق أنك حينما تقول نرفض الحضارة الأوربية ، فإن ذلك يعتبر نوعًا من الخيال ، لأنها متغلغلة فى كل مكان ، وإذا قلت نأخذ بالحضارة الأوربية فقد ألغيت ذاتيتك ، وأنهيت رسالتك وأصبحت مسمارًا فى عجلة أوربا ، وهذا مالا يرضاه مسلم ولا مفكر شرقى أو إسلامى ، وذلك مع الأشياء الأخرى ، من وسائل الدمار والهلاك والشقاء ، الذى أوجدته الحضارة الأوربية وكانت السبب فى رفض هذا الرأى . ولايبقى إلا الرأى الثالث الذى ينادى بأخذ الصالح وترك الفاسد من الحضارة الأوربية . وماذا يمكن أن تقول لشخص يقول لك تعال ندرس ، وتعال نستفيد من هذه الحضارة فنأخذ بالصالح ونترك الفاسد ؟ أتقول إن رأيه غير رشيد ؟ أتقول إن رأيه فاسد ؟ إنه يدعوك للأخذ بالصالح وترك الفاسد . ومع ذلك فإنك إذا فكرت فى هذا الرأى ربما وجدته أضعف الآراء مع هذه الوجاهة كلها ، ومع هذا المنطق الذى يراه الكثيرون معقولا ، إذا فكرت فيه ، ربما وجدته أضعف الآراء .

الرأى الأول : الأخذ بالحضارة الأوربية – رأى جرىء يجابه الجو الإسلامى فى جرأة ، بل فى نوع من الوقاحة لايبالى صاحبه بالرأى العام .

والرأى الثانى : رأى جرىء أيضًا صاحبه صريح شجاع ، يجابه الرأى العام فيما يتعلق بهذه الحضارة ؛ ولقد حاوله من قبل غاندى مثلا ، حينما بدأ يغزل ليتخلى عن الملابس التى تنسج بالآلات الأوربية ولكنه لم ينجح ، والهند الآن سائرة فى طريق هذه الحضارة .

لكن الرأى الثالث : وهو الرأى المتوسط . إنه ككل الآراء المتوسطة .

والآراء المتوسطة عادة آراء الضعفاء . هذا الرأى المتوسط ماهى مساوئه ؟ ماهى مفاسده ؟

أولا : الإقرار بشرعية تقليد الحضارة الأوربية . وهذا مالا يرضاه مسلم ، وحتى حينما تقول بتقليدها فى الصالح ، فهذا مالا يرضاه مسلم أيضًا . لا يرضى مسلم أن يفرض على العالم الإسلامى نوعًا من الشرعية فيما يتعلق بأخذه للبعض ، ولو للبعض فقط .. هذا من جانب أنك تفرض على نفسك التقليد وتحكم على نفسك بأن تكون مقلدًا باستمرار ، وتحكم على نفسك مهما كان الأمر فى الاختيار ، تحكم على نفسك أن تكون سائرًا فى ركاب « الصالح » ، كما تقول ، من الحضارة الأوربية .

أين أنت ؟ أين شخصيتك ؟ أين ذاتيتك ؟ هذا أمر . الأمر الثانى : هو أننا بمجرد أن نبدأ فى الاختيار استحال هذا الاختيار . استحال ، لأن الناس يختلفون أمزجة وأهواء ومشارب . والأمر – أمر الاختلاف – فى غاية الوضوح .

نأخذ مثلا الاستحمام على الشواطئ . سيقول قوم إنها صحة ورياضة . وسيقول قوم إنها رجس من عمل الشيطان ، ولا يتأتى مطلقًا أن يستسيغ المسلم أن يذهب إلى الشاطئ ويكشف عورته ، أو أن تذهب زوجته أو ابنته أو أخته إلى الشاطئ وتكشف عورتها ، سيختلفون ، أنصار الشيطان سيقولون إنه مستساغ ، وأنصار الرحمن سيقولون إنه ليس بصالح .

الاختلاط ، اختلاط النساء بالرجال : سيقول قوم إنها حضارة وتقدم ومدنية ، وسيقول قوم إنها فساد ورجس .

فائدة البنوك ، سيقول قوم إنها عمل اقتصادى سليم سار عليه الاقتصاد الأوربى وما زال يسير ، وسيقول قوم إن الفائدة ربًا وهى إذن محرمة . وتعال إلى

أى موضوع من الموضوعات النظرية هذه ، فستجد الاختلاف بين الفريق الذى يقبل ، والفريق الذى يعارض .

ورقص المخاصرة ، يمارسه قوم ويستسيغونه ، ويلغيه آخرون ، كعامل من عوامل إثارة الشهوات ، ويرون فيه إيضًا انتهاكًا للعرض واضحًا .

الاتفاق إذن على الصالح : على كونه صالحًا ، وعلى الفاسد : على كونه فاسدًا ، لن يتأتى ، والآراء كلها إذن تنهار أمام النقد وتختلف فيها . ماهو الطريق إذن ؟ أليس هناك إلا أن نأخذ بالحضارة أو نرفض الحضارة ، أو نتوسط فنأخذ بالصالح ونرفض الفاسد ؟ وصلنا إلى طريق مسدود ، وكان لابد من أن نصل إلى الطريق المسدود ، لأننا لم نتجه الاتجاه السليم فى الموضوع . إننا نسينا إسلامنا وحضارتنا وثقافتنا وديننا . نسينا كل ذلك واتجهنا مباشرة إلى أوربا . ولو تساءلنا من المبدإ :

ماهو المنهج الإسلامى فيا يتعلق بالنهضة ، ماهى الطريقة الإسلامية فيما يتعلق بالنهضة ؟

إننا فى حضارة معينة ، فى دين معين ، فى ثقافة معينة ، فَلِمَ نترك كل ذلك ونذهب متسائلين فيا يتعلق بأوربا : ماهو ارتباطنا بها ؟ نأخذ حضارتها ، نتوسط فى الموضوع . كل ذلك لم يكن الوضع الصحيح أو الوضع السليم للمشكلة ، وإنما الوضع الصحيح ، أو الوضع السليم للمشكلة هو :

ماهو المنهج الإسلامى ، أو المنهج القرآنى ، أو المحمدى ، فيما يتعلق بنهضة الشعوب الإسلامية ؟

وإذا جئنا إلى هذا المنهج فسنجده بإذن الله واضحًا ، سهلا ، ميسرًا . إن أول كلمة فى الوحى . إن أول كلمة على الإطلاق هى « اقرأ » ، وهذه الآيات

الكريمة الأولى من الوحى فيها : القراءة ، وفيها العلم والتعليم ، وفيها القلم . والأمر فى غاية الغرابة فيما يتعلق بدين من الأديان ، لايبدأ بإثبات وجود الله أو الحديث عن الوحدانية مباشرة والاستفاضة فى ذلك وإنما يبدأ بالعلم ، بالقراءة ، بالكتابة ، بالقلم ومايسطر به. كل هذا كان ابتداء الرسالة الإسلامية. ابتدأت الرسالة الإسلامية باقرأ ، بدأت بالعلم ، وكان أول قسم أقسم الله سبحانه وتعالى به ، كان بالقلم ومايسطر بالقلم . ثم تستفيض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية حاثة على العلم موجبة له ، فارضة له ، باعثة عليه . تتحدث الآيات القرآنية عن العلم بالقصص ، وتتحدث عن العلم بالأسلوب المباشر .

من القصص الموجه مباشرة إلى التربية ، والذى تستفيد منه التربية مباشرة ، وكأنه موجه إليها ؛ أن سيدنا « موسى » عليه السلام يجلس بين قومه ، فيقول له أحدهم : هل هناك من هو أعلم منك ؟ فيقول : كلا ، ويعاتبه الله سبحانه وتعالى على ذلك . إن الشخص الذى ينتهى به الأمر إلى أن يعتقد أنه لا أعلم منه فى الأرض ، يجمد على وضع معين ، وينتهى فى العلم إلى حد محدود ، ويمكث هكذا لايزداد ، يأخذه نوع من الاكتفاء ، فيصبح كالماء الراكد لا يسير . ويقول له الله سبحانه وتعالى يخبره أن هناك عبداً من عباده يعلم ما لا يعلمه « موسى » . يجوز أن يكون جاهلا ببعض ما يعلمه « موسى » ، ولكنه على كل حال عنده علم ، نوع من العلم ليس عند « موسى » عليه السلام .

ويأتى « موسى » بفتاه ويقول له : (**لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**) ، لابد أن أقابل هذا العبد من عباد الله ، ولو مكثت فى السفر دهورًا وأحقابًا ، ويأخذ موسى فتاه ويسافران سفرًا مجهدًا يقول عنه موسى : (**لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا**) ، ويلتقى بهذا العبد ،

والتعبيرات القرآنية فى هذا اللقاء فى غاية الدقة . إنه يبدؤه بقوله : (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِى مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) كلمة هل هنا ، ألغت شخصية « موسى » أنه عليه السلام بدأ بكلمة : هل ولم يقل إنى أريد ، وإنما قال : هل ، ثم يتبع كلمة هل كلمة أتبعك ، لم يقل أصاحبك أو أرافقك أو أزاملك ، وإنما قال أتبعك .

كلمة « هل » وكلمة « أتبعك » ، فى غاية الدقة فى موقف التلميذ من الأستاذ . وماكان « موسى » فى هذه الفترة التى يقضيها مع الخضر إلا تلميذًا مع أستاذه : (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِى مِمَّا عُلِّمْتَ رشْدًا ؟) .

ولم يترفق الأستاذ به ، مع إلغاء الشخصية ، ومع التبعية لم يترفق به ، إنما قال له رفضًا يشبه الحث ، أو حثًّا هو فى صورة رفض (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا) ، ويبين له بهذا الموقف أن العلم ، فى حاجة إلى صبر ، وأن من ليس بصابر ، لا يتأتى له مطلقًا أن يصل فى العلم إلى درجات المخترعين ، أو المبتدعين ، أوكبار المثقفين (إنك لن تستطيع معى صبرًا) ، وكأنه يقول له نحن فى ابتداء الطريق وأنا أشترط الصبر ، فإذا كان عندك الإرادة العازمة على الصبر فعرفنى بذلك ، ولم يكن هذا رفضًا صريحًا . ويقول له « موسى » فى أسلوب التلميذ المتواضع ، التلميذ الصادق التلمذة (سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ صابرًا) ويضيف « موسى » من عنده أمرًا آخر هو من الضرورات المطلقة فيما يتعلق بالتلمذة أيضًا (ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصِى لك أمرًا) عدم عصيان أمر الأستاذ (ولا أعصى لك أمرًا) والأستاذ الذى نتحدث عنه ، هو من توافرت فيه شروط الأستاذية .

ويقول له العبد الصالح غير مترفق أيضًا ، يقول له : (فإن

اتبعتنى ...) لم يقل فإن رافقتنى أو زاملتنى أو صاحبتنى وإنما قال : **(فإن اتَّبَعْتَنِى فلا تَسْأَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)** ، لا تسألنى عن شىء لأن الأستاذ الجدير بالأستاذية يستفيض حينما تكون هناك ضرورة للاستفاضة ، ويوجز حينما يقتضى الأمر الإيجاز ، بل يسكت حينما يقتضى الأمر السكوت ..

من الأشياء المعروفة أن « أفلاطون » مثلا كان له درسان ، درس عام للجمهور ، ودرس آخر لخاصة تلاميذه . فى هذا الدرس الآخر ، كان أحيانًا الدرس من أوله إلى آخره صمت ، لا كلمة فيه . وإنما يطلق أفلاطون فى المبدإ كلمة من الكلمات ليفكروا فيها ، كلمة الشجاعة ، كلمة الفضيلة ، كلمة العفة ، كلمة من الكلمات ليفكروا فيها ، ويتركهم يفكرون طيلة الدرس ، وينتهى الدرس دون أن يقول « أفلاطون » شيئاً . وكان هذا الدرس ، درس خاصة تلاميذه ، وليس درس الجمهور . أما درس الجمهور ، فإنه كان يتحدث فيه على سجيته ، إن القرآن يتحدث عن العلم فى صورة قصص ، عن العلم الذى يربى ويهذب ويوضح القرآن المعالم ، والصلات بين الأستاذ والتلميذ ، ويتحدث عن قوة العلم ، وإلى أى مدى يمكن أن يصل العالم فى القوة ، فيتحدث فى قصة أخرى :

يجلس « سليمان » عليه السلام بين قومه ويأخذون فى الحديث عن « ملكة سبأ » . ويقول « سليمان » : **(أيكم يأتينى بعرشها)** ؟ ويخاطبه **(عفريت من الجن)** فيقول له : **(أنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ)** ، ويستبطئ « سليمان » الأمر (قبل أن تقوم من مقامك ؟) ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات . يستبطئ « سليمان » الأمر ، إذ يجوز أن يمكث « سليمان » فى

المجلس ثلاث ساعات أو أربع ساعات ، ويسأل من جديد ، فيقول الذى عنده علم من الكتاب : (**أنا آتيك به قبل أن يَرْتَدَّ إليكَ طَرْفُكَ**) ، وهنا كلمة (**علم من الكتاب**) « تنفى المعجزة » علم من الكتاب ، إنه يحدد : من (الكتاب) ، فهى تنفى إذن المعجزة ، إنها صورة من صور العلم ، أسلوب من أساليب العلم .

والواقع أن القرآن يحدثنا فى عهد « سليمان » عن حضارة قوية مزدهرة ، يقول الذى عنده (علم من الكتاب) ؟ « ليس هذا العلم من الوحى . وليس هذا العلم من الكرامات ، وليس هذا العلم من المعجزات ، وإنما هو من الكتاب . ومعنى ذلك أن العلم بسلطانه ، ولقوته وبالتغلغل فيه ، وبالتعمق فيه ، يصل إلى أكثر مما يصل إليه مردة الجن والشياطين ، فيما يتعلق بقدرته فى الأشياء ، وسواء اتفق المفسرون على هذا الأسلوب من التفسير ، أو لم يتفقوا ، فإنه من غير ما شك ، نوع من التفسير وإن لم يتفق عليه الجميع .

ويتحدث القرآن عن العلم ، عن طريق القصص ، ويتحدث القرآن عن العلم بالأسلوب المباشر ، وأصل مباشرة ، إلى آيتين من الآيات الكثيرة الموجودة فى القرآن والتى تشيد بالعلم والعلماء .

أما أولا : فإن الله سبحانه وتعالى ربط خشيته بالعلم ، (**إنما يخشى الله من عباده العلماء**) وأعجل فأقول إن هذه الكلمة القرآنية أتت فى معرض الحديث عن العلوم الكونية ، عن العلوم المادية ، عن الجبال والغرابيب السود ، والألوان واختلاف الأجناس ، وبعد أن تحدث عن الكم ، عن النواحى المادية قال سبحانه وتعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ) هذه العلوم الكونية كان يسميها أسلافنا رضوان الله عليهم تسمية دقيقة جميلة ، كانوا

يسمونها علوم الكشف عن سنن الله الكونية . ولله سنن فى الكون كما له سنن فى المجتمعات . وإذا ما اكتشفت هذه السنن الكونية لله سبحانه وتعالى فى الكون . فإننا نزداد علماً به ونزداد إذن خشية له (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) .

وآية أخرى ، تصل بالعلماء إلى ما لم يصل بهم مذهب قديم أو حديث أو نحلة قديمة وحديثة ، لا فى الشرق ولا فى الغرب . يقول الله سبحانه وتعالى : (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إلا هو) ، « التوحيد » هو « لا إله إلا هو » . من الذى شهد مع الله سبحانه وتعالى « التوحيد » « الملائكة » ، ومن الذى شهد مع الله ومع ملائكته « التوحيد » ؟ (**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم**) ، قرن أُولى العلم به سبحانه وتعالى وبملائكته . فى ماذا ؟ فى « أشهد أن لا إله إلا الله » وهى قمة الإيمان . وقمة التوحيد : « أشهد أنْ لا إله إلا الله » ، إنها ليست : أقول لا إله إلا الله ، ولا أنطق بلا إله إلا الله ، ولا أقتنع بلا إله إلا الله ، ولا أومن بلا إله إلا الله ، ولا أعتقد بلا إله إلا الله ، وكل هذه الصيغ من التعبير جميلة . ولكن القمة التى طالبنا الإسلام بها ، والتى وصل العلماء إليها ، والتى قرن الله سبحانه وتعالى العلماء به وبملائكته فى شهادتها هى « أشهد أنْ لا إله إلا الله » وهى قمة الإيمان . ولن تجد مطلقاً فى الماضى ولا فى الحاضر ، ولا فى الشرق ولا فى الغرب ، لن تجد إشادة بالعلم كهذه الإشادة . أى علم ؟ أى علم يقصده القرآن ؟ إنه كل ما يبين قوانين الله سبحانه وتعالى فى الكون . وبيان قوانين الله سبحانه وتعالى فى الكون من الناحية الروحية المعنوية ، ومن ناحية المجتمع بينها القرآن وبينتها السنة .

وقوانين الله سبحانه وتعالى فى الكون المادى ، ترك الله سبحانه وتعالى للإنسان الحرية المطلقة ، فى أن يبحث فى أرجاء الكون ما شاء ، وأن يسير فى

الكون حسبما أراد ، وأن يكون الكون كله مجالا لأبحاثه ، ولم يقيده القرآن إلا بشيء واحد ، قيده بأن تكون أسسه : أسس البحث ، وغايات البحث متجهة إلى الله سبحانه وتعالى ، وليست متجهة إلى تدمير أو غلبة أو استعلاء ، وإنما هي متجهة إلى الله سبحانه وتعالى : إلى الفضيلة ، إلى إسعاد الإنسانية ، إلى هذه النواحي التي تفيد الإنسانية فيما يتعلق بسعادتها ، ولا تضر الإنسانية أو تشقيها . هذا هو القيد الوحيد الذي قيد الله سبحانه وتعالى به العلم .

ورسول الله ﷺ ، يتحدث عن العلم . وحديثه الجامع عن العلم معروف ، حديثه الذي رواه الترمذي ، ورواه غير الترمذي ، الذي يجعل طريق العلم طريقاً إلى الجنة . فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً ، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالِم على العابد ، كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء . وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم . فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

واندفعت الأمة الإسلامية متأثرة بالقرآن . متابعة للقرآن . معترفة بأن شعارها هو شعار رسولها الكريم الذي كان (رب زدني علما) . ومعترفة بأن شعورها وطابعها هو : « من استوى يوماه . في العلم أو الفضيلة فهو مغبون . ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان » . اندفعت الأمة الإسلامية في العلم : تفسيراً ، وحديثاً ، وفقهاً ، وأصول فقه . ولكنها بجوار ذلك . ومنذ أن بدأت أيضاً . اندفعت نحو العلم في خبايا الكون . وزوايا الوجود المادي : تكتشف وتبحث وتفحص وتجرب وتنظر وتستقرئ . وكل ذلك حدث فكانت النهضة

الإسلامية الكبيرة . وكان هناك أعلامها . أعلام هذه النهضة الذين لا يعدون بالعشرات وإنما يعدون بالمئات . كان هناك أعلامها فى الرياضة . وكان هناك أعلامها فى الطب ، وكان هناك أعلامها فى الهندسة . وكان هناك أعلامها فيما يتعلق بمختلف العلوم على شتى نواحيها . وكانت الحضارة الإسلامية هى الأساس الذى قدم للغرب فأخذه الغرب من ناحيته المادية . ولم يأخذه بقيد الله سبحانه وتعالى . من ناحية الأسس أو من ناحية الأهداف – لم يأخذه بهذا القيد : قيد الخير والفضيلة والرقى بالإنسانية – وإنما أخذه مطلقاً ، فكان التدمير أثراً من آثار علم الغرب ، وحضارة الغرب . وكانت هذه المآسى التى شقيت بها الإنسانية من آثار هذا العلم . لأنه كما يقول الغربيون أنفسهم يقولون إنها حضارة شيطانية ، لأنها لا تنتسب إلى أصل أخلاقى . ولا إلى أصل روحى . ولا إلى أصل دينى .

يقول الكثيرون من المتزنين فيما يتعلق بالحضارة الغربية . يقولون إنها حضارة شيطانية ، لأن الحضارة الصادقة ، هى ما يكون فيها الناحية الروحية والناحية المادية .

الناحية الروحية التى تسيطر عليها فى التوجيه ، وفى التنظيم . وفى الاستعمال . والناحية المادية التى تفيد فى كشف القوانين المادية . ومن أجل ذلك كانت الحضارة الإسلامية متكاملة ، وإن كان الله سبحانه وتعالى قد بدأ بقوله : « اقرأ » ، فإنه أتبع ذلك مباشرة بقوله : (باسم ربك) . فكان هناك العلم فى الكلمة الأولى . وكان هناك الإيمان فى الكلمتين الثانيتين . (اقرأ) لم يطلقها وإنما قيدها (باسم ربك) . وإذا أنت تبصرت فيما يتعلق بهذه الكلمات الثلاث (اقرأ باسم ربك) . وجدت أن (اقرأ) تعنى ، لغة ، الأمر بالقراءة ، ولكنها

فى حقيقة الأمر رمز لكل عمل يأتيه الإنسان. والمعنى الحقيقى لهذا الرمز (اقرأ باسم ربك) ، « اعمل باسم ربك » « قم باسم ربك » ، « إذا تحركت فتحرك باسم ربك » ، « وإذا سكت فاسكت باسم ربك » ، « وإذا قلت فقل باسم ربك » ، « وإذا صمت فاصمت باسم ربك » (اقرأ باسم ربك) إنها رمز لكل عمل يأتيه الإنسان ، ومن أهم هذه الأعمال العلم . ولذلك كانت الكلمة التى تعبر عن العلم هى الكلمة الرمزية فى هذا المجال . ولم يقل الله فى هذه الكلمات الأولى « اقرأ باسم الله » ، وإنما قال : (اقرأ باسم ربك) . وأنا شخصيًّا فى حقيقة الأمر كنت أتوقع لأول وهلة بالنظرة القاصرة – نظرة الإنسان عادة – كنت أتوقع أن يقول : (اقرأ باسم الله) . ولما فكرت فى الأمر رأيت الحكمة الحكيمة لله سبحانه وتعالى حينما يقول : (اقرأ باسم ربك) . اقرأ باسم المربى ، اقرأ باسم التربية التى ستأتى . أنت فى حرية مطلقة قبل أن تدخل فى هذا الدين ، فإذا دخلت فيه يجب أن تلتزم من المبدإ بتربية المربى . وجاءت تربية المربى تتوالى فى الجو الإسلامى ، تتوالى فى صورة تشريع . وتتوالى فى صورة أخلاق ، وتتوالى فى صورة عقائد ، وتتوالى فى صورة تنظيم المجتمع . وتتوالى فى صورة الثقة بالله سبحانه وتعالى ، وإلى أى مدى هذه الثقة تكون : (اقرأ باسم ربك) ، أما ما لم يكن باسم ربك فإنه ليس بإيمان ، وما لم يكن باسم ربك كالذبيحة تذبح على النصب فهو فسق . يقول تعالى : (**ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق**) ، وكلمة فسق هنا لا تختص بما ذبح على النصب فقط ، أو بما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح فقط . وإنما كل أمر لا يصدر على النية الخالصة لله ، فإنه فى العرف الإسلامى فسق ولو كان عمل خير .

إن هناك تفرقة بين الوثنية والإيمان ، يجب أن نتدبرها . ما هى الوثنية ؟ هى ما يصدر عنا لا نريد به ، أولا نذكر عليه اسم الله . أو تكون نيتنا فيه غير صادرة عن الأسس الإسلامية ، وكل ماكان غير صادر عن المبادئ الإسلامية فهو وثنية . أما الإيمان فإنه الصدور عن الله سبحانه وتعالى : عن قرآنه وعن سنته .

وكل عمل إذن ليس صادراً : فى النية أو فى الموضوع عن الجو الإسلامى . فإنه يعتبر وثنية وكل وثنية هى فسق ، لأنه لا يذكر اسم الله عليها ، ولا يصدر الإنسان فيها عن الدين .

أيها الإخوة المؤمنون :

أطلق الله سبحانه وتعالى الحرية للإنسان فى العالم المادى ولم يقيده إلا بهذا القيد ، قيد أن تكون النية فيه لله سبحانه وتعالى . ولكنه سبحانه وتعالى فيما يتعلق بالعقائد ، وفيما يتعلق بالتشريع ، وفيما يتعلق بالأخلاق . حسم الأمر حسماً كاملا تامًّا ، لا لبس فيه ولا شائبة فيه . يجب على الأمة الإسلامية وجوباً مطلقاً أن تصدر فيما يتعلق بنظام مجتمعها . وفيما يتعلق بأخلاقها . وفيما يتعلق بعقائدها . وفيما يتعلق بتشريعها .. أن تصدر عن الله سبحانه وتعالى .

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى رسالة هى آخر الرسالات ، وتعليل أنها آخر الرسالات أمره سهل . إن الكتب السابقة التى كانت تحتوى الرسالات كانت تغير وتبدل وتتناقض وتتعارض وتختلف بعمل الإنسان . فكان من الطبيعى أنه حينما تندثر هذه الكتب وتزول . تصبح الرسالة وقد زالت . وكان لابد إذن من هداية الإنسان برسالة أخرى ، وأحب الله سبحانه وتعالى أن تختتم الرسالات بمحمد « ﷺ » . فأنزل عليه كتاباً ضَمِن حِفْظَه **(إنا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ**

وإنَّا لَهُ لحافِظُونَ) ، هذا الكتاب هو الرسالة الدائمة الخالدة . فليست الإنسانية فى حاجة إلى رسالة أخرى . ليست فى حاجة إلى « بهائية » ، وليست فى حاجة إلى « قديانية » ، وليست فى حاجة إلى مزيفات كمزيفات « مسيلمة » الكذاب ، أو « سجاح » الكاذبة . ليست الإنسانية فى حاجة إلى مزيفات من أمثال هذه ، لأن عندها كتاب الله .

من المميزات الضخمة الهائلة للغة العربية وللمسلمين ، أن أنزل الكتاب الكريم بها . إنها اللغة الوحيدة فى العالم ، التى تتضمن أسلوب الله سبحانه وتعالى . التى فيها النص المقدس الذى هو كلام الله سبحانه وتعالى . ومن أجل ذلك فإنه منذ نزول القرآن بها أصبحت لغة مقدسة . وكل تهريج من هؤلاء الذين يريدون أن يبتعدوا عنها فى اللهجة أو فى الكتابة . إنما هو ابتعاد عن الروح الحقيقية للجو الإسلامى .

ومن المميزات الضخمة الهائلة للمسلمين . أنهم يستمدون دينهم من الأسلوب الإلهى . إنهم يأخذونه عن القرآن . وليس هناك نحلة أخرى أو مذهب آخر يستمد عقيدته أو أخلاقه أو تشريعه . عن الأسلوب الإلهى . إن القرآن ميزة ضخمة للمسلمين كمصدر لحياتهم . إنه مصدر بالأسلوب الإلهى . وميزة ضخمة للغة العربية . لأنها أصبحت هى اللغة الوحيدة التى تحتوى على نص مقدس بالأسلوب الإلهى نفسه . ومنذ نزول القرآن أصبحت اللغة العربية لغة الإسلام . إنها قبل نزول القرآن . كانت لغة الجزيرة العربية : لغة إقليمية . أما بعد نزول القرآن ، فإنها أصبحت لغة الإسلام لأنها لغة القرآن .

أيها الإخوة المؤمنون :

ويسير القرآن والرسول ﷺ فى طريق واضح من ناحية التشريع : ليس

للإنسان حرية التشريع . له حرية الشرح . له حرية الاستنتاج . ولكن حرية التشريع ليست له . وقد كتب « الإمام الشافعى » رضى الله عنه بالنسبة لتوضيح قواعد استنتاج التشريع . هذا العمل العظيم الذى نسميه فى صراحة منطق المسلمين . إنه ألف عبقرية مبتكرة – « أنا لست شافعى المذهب . وهذا إذن ليس مدحاً منى للإمام الشافعى من أجل اعتناقى لمذهبه » – ألف فى عبقرية مبتكرة ، أصول الفقه . وكان هذا الابتكار ضخماً . هائلا . إنه يعتبر فترة من الفترات التى تجلى الإلهام الإلهى فيها على الإمام الشافعى فصنع ما صنع .

إن الإنسان لا حرية له فيما يتعلق بالتشريع . وليس أمر التشريع موكولا إلى الإنسان . وإنما هو موكول إلى الله سبحانه وتعالى . هذا التشريع طُبّق فى الجو الإسلامى . إنه لم يعد نظرية غير مطبقة . وكل من يهرج فيقول : إن هذا التشريع خيال لايطبق . يكذبه . أنه طبق وأصبح واقعًا . لقد خرج من نظرية إلى واقع ، ومن مبادئ إلى تطبيق . إنه لم يعد كلامًا فحسب . لقد أصبح واقعًا بدل أن يكون نظرًا فحسب . أو كلامًا فحسب .

مجتمع إسلامى كان خير مجتمع أخرج للناس . . . وقد بين الله سبحانه وتعالى لنا فى صور حاسمة الموقف بالنسبة للتشريع الإلهى ، إنه سبحانه يقول :
(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) . ويقول :
(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) ، ويقول :
(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، ويقول :
(فلا وربِّك لايُؤْمِنونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لايَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حرجًا مما قَضَيتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) . هذا فيما يتعلق بالتشريع . إنه لايتأتى مطلقًا أن يدور فى خلد مسلم صادق الإيمان . أن

تكون الشريعة الإسلامية المصدر الأساسى للتشريع كلا . وإنما الشريعة الإسلامية هى المصدر الوحيد للتشريع ، هذا هو شعور المؤمن الصادق الإيمان . وهذا هو ماتعبر عنه فى صدق وفى إخلاص وفى حسم هذه الآيات التى تحدثنا عنها ، والتى وصف الله سبحانه وتعالى فيها من لم يحكم بما أنزل الله ، لقد وصفه مرة بالظلم ، ثم زاد هذا الوصف فوصفه بالفسق ، ثم فى النهاية وصفه بالكفر ، ومامن شك فى أن من يحيد عن التشريع الإلهى مختارًا غير مضطر ، فإنه ظالم وهو فاسق وهو كافر ، وهذا هو وصف الله سبحانه وتعالى وليس وصفنا نحن .

وكان الموقف حاسمًا أيضًا فيما يتعلق بالأخلاق ، فإن الأخلاق الإسلامية . يجب أن تكون كما هى فى الجو الإسلامى . وكان الموقف حاسمًا فيما يتعلق بنظام المجتمع . ولابد أن نسير فى نظام مجتمعنا على حسب مارسمه الإسلام لنظام المجتمع ، وهكذا الأمر أيضًا فيما يتعلق بالعقائد .

أيها الإخوة المؤمنون :

إن الغرب فيه ثقافة وفيه العلم المادى . والإسلام – كما قلنا – أطلق لنا العنان فيما يتعلق بالعلم المادى بالقيد الذى ذكرناه . ولابد أن نغترف منه أينما وجدناه ، ولكننا لا نغترف فحسب . وإنما نغترف ونطور ونخترع فيه . ونبتدع ونكون من المنشئين له المطورين له . المبتدعين له ، نكون من أعلامه بل فى قمة أعلامه .

أما فيما يتعلق بالذاتية الإسلامية . والذاتية الإسلامية تعنى تشريعًا وتعنى نظام مجتمع وتعنى نظام عقائد . وتعنى أخلاقًا فإنه لابد وأن نأخذها من

الإسلام . إن الحضارة الغربية فى قسمها الثقافى زيفت تزييفًا كاملا ، ونضرب بعض الأمثلة :

« علم الاجتماع ، وعلم النفس » . من الذى يدرسها فى أوربا وأمريكا فى العصر الحاضر ؟ أكثر من ثمانين فى المائة من أساتذتها هم من اليهود . وقد وضعوا الخطة محكمة متعمدين أن يستولوا على كراسى الجامعات فى هاتين المادتين بالذات « علم النفس ، وعلم الاجتماع » وعلم النفس الذى خرج إلى التجربة فأصبح ماديًّا لا يعبأ به أساتذة اليهود . وإنما يعبثون بعلم النفس الذى مازال نظريات مثل : كيف نشأت الأديان ؟ الأخلاق كيف تقوم ؟ ماهو المصدر للأخلاق ؟ ماهو المصدر للدين ؟

إن هذه كلها نظريات . ومن أجل ذلك يتحدثون عنها . ويذكرون آراء يتعمدون التزييف فيها . ويحاولون بذلك أن يفسدوا على الإنسانية عقائدها وأخلاقها وتشريعها ، عن طريق علم النفس . وعن طريق علم الاجتماع لأنها نظريات يمكن لك أن تبرهن بأسلوب شيطانى على صدق بعضها . تحدثوا عن نشأة الأديان . وكأن الله سبحانه وتعالى غير موجود . وهكذا الأمر فى كل هذه النواحى . . أفسدوا على شباب الجامعات فى أوربا وأمريكا دينهم وأخلاقهم ، وهم يبغون من وراء ذلك – وهذا من المعروف – أن يفسدوا على الإنسانية . « مسيحية ومسلمة » . وكل نِحْلة من النِّحل أن يفسدوا عليها أخلاقها ، وأن يفسدوا عليها دينها لتتحلل وتفسد ، ويسيطروا هم من وراء كل ذلك .

إنهم يقولون فى هذا الكتاب الذى يجب أن يقرأه المسلمون جميعًا : كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » يقولون مثلا نحن الذين رتبنا نجاح « كارل ماركس » و « كارل ماركس » يقول : إن الدين أفيون الشعوب . ولما قيل له

لكن الإنسانية لا تستغنى عن عقيدة . فما هو البديل لعقيدة الألوهية ؟

فقال بصراحة : « البديل عن عقيدة الألوهية المسرح . الهوهم فى المسرح . افتحوا المسارح . واجعلوهم يتناقشون فى التمثيليات وفى الروايات . فذلك يصرفهم عن الله سبحانه وتعالى ... » نحن الذين رتبنا نجاح « كارل ماركس » . هذا مايقوله اليهود . رتبوا نجاحه بالمقالات . بالصحف . بكل وسيلة من الوسائل . ويرتبون نجاحه فى الجامعات عن طريق علم الاجتماع . ونحن الذين رتبنا نجاح « فرويد » صاحب « نظرية الجنس » . يقول لك : « إنك تعتقد أنك تسير بحسب مثل عليا ، وبحسب فضائل وماشاكل ذلك . كلا إن الذى يسيرك الغريزة الجنسية » . إنه ينحط بالإنسانية إلى مستوى أقل من مستوى الحيوانات ، ومن أجل ذلك رتبوا نجاحه . لأنه يجعل أنْ لا مكان لشيء اسمه الفضيلة أو لشيء اسمه الكرامة . أو لشيء اسمه المثل العليا . إنه جعل كل سبب وكل علة للسلوك الإنسانى إنما هى الغريزة الجنسية . ورتبوا نجاحه أيضًا فى الصحف والمجلات بالمقالات . بالكتب ، لا بالعشرات وإنما بالمئات فى بيان نظريته : لأنها أيضًا نظرية تفسد على الإنسانية أخلاقها ومثلها العليا وفضائلها . وأخذوا يستفيضون فى تدريس نظريته فى علم النفس . ونحن الذين رتبنا نجاح « نيتشه » و « نيتشه » أنكر الأخلاق الفاضلة على الإطلاق . إنه يقول : « إن مايسمونه الأخلاق الفاضلة ضعف ، وأنه إذا تيسر لك أن تذبح ، أو تزنى ، وأن تسرق وأن يكون استمتاعك فى هذا . وأن تسيل الماء أنهارًا . وأن تمشى على رءوس بنى البشر فافعل » . ومن أجل ذلك أيضًا رتبوا نجاحه بكل الوسائل الممكنة .

ونحن الذين رتبنا نجاح « داروين » . إن هذه اعترافاتهم وليست من

عندى ، و « داروين » يقول بنظرية « التطور » . ونظرية التطور ليست نظرية ثابتة ، فإنها تقول : « إن الإنسانية متطورة فى عقلها ، وفى تفكيرها » . ومعنى هذا أنه ليس هناك قضية مطلقة ، لا فى الأخلاق ، ولا فى التشريع ولا فى العقائد . ليست هناك قضية مطلقة ثابتة فيما يتعلق بهذه المجالات ، وإنما هذه القضايا فى هذه المجالات تتبع رقى الإنسانية ، فما هو حقيقة اليوم سيكون فى الغد غير صحيح . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالتطور . إنه مامن شك فى أن هناك التطور المادى ، هناك التطور من الإبرة إلى ماكينة الخياطة . وهناك التطور من وابور الغاز إلى البوتاجاز ، وهناك التطور فى وسائل المواصلات التى لا حصر لها ، هناك تطور مادى ، وهذا ما لا ينكره منكر ، ولكن هذا شيء . وكون الإنسانية تتقلب فى عقلها وفى ذكائها من طور إلى طور هذا شيء آخر . وإذا كان الأمر الأول صحيحا أوصادقًا ، فيجب ألا نأخذه مثلا للفكرة الثانية . وهى تطور الإنسانية كإنسانية ، إن تطور الإنسان كإنسان . تطور فى عقله . تطور فى ذكائه .

لم يحدث أن التطور حدث فى الوسائل التى يسير عليها المجتمع ، والتى يسير حسبها المجتمع . لو أخذت طفلا من أرقى البيئات الأمريكية حضارة ، ووضعته فى مجاهل أفريقيا سينشأ طفلا فى المجاهل والغابات . سينشأ طفل غابة . لاعلاقة له بحضارته الأصلية ، وإذن ليس هناك فى حقيقة الأمر تطور فيما يتعلق بالعقل . ولن تكون الإنسانية شيئًا آخر غير كونها إنسانية . وفكرة التطور . فضلا عن ذلك ، تحدث عنها كبار المفكرين الأوربيين ، وقالوا إنها ليست بنظرية ثابتة . وإن الإنسانية باعتبارها إنسانية لم تتطور فيما يتعلق بالنشأة عن خلية . ثم عن كذا ، ثم عن كذا ، إلى أن وصلت إلى الإنسان . قالوا إن هذا وهم واهم

بالأدلة الثابتة عندهم .

ومن غريب الأمر أننا نستعمل كلمة التطور فيما يتعلق بالإنسانية بمحيطاتنا الإسلامية . وسيطرت علينا الكلمة . وكأنها حقيقة ، وكما تأثرنا فى كثير من الآراء ، آراء « فرويد » أو آراء « كارل ماركس » تأثرنا أيضًا بنظرية التطور ، واستعملناها فى كتاباتنا ، ومن وراء كل ذلك اليهود . إنهم يحبون أن يفسدوا على الإنسانية أخلاقها ودينها .

أيها الإخوة المؤمنون :

يتلخص فى النهاية الذى أريده . أنه من أجل نهضة الأمم الإسلامية يجب نأخذ بالعلم المادى إلى أقصى مايمكن أن نأخذ به فى هذا الجانب المادى . أما الجانب الآخر : الروحى والاجتماعى ، فإننا نأخذ بما رسمه الله سبحانه وتعالى فى الأخلاق . ومارسمه الله سبحانه وتعالى فى التشريع . ونأخذ بما رسمه سبحانه وتعالى فى العقائد . ونأخذ بمارسمه الله سبحانه وتعالى فى نظام المجتمع ..

لايتأتى مطلقًا لأمة مسلمة أن تحيد عنه وإلا تخلت عن رسالتها ، وأعود فأكرر ماقلته إن المبرر الوحيد لوجود الأمة الإسلامية إنما هو هذه الرسالة ، آخر الرسالات .. ، هذه الرسالة التى كُلِّفت بها ، فإذا تخلت عنها فإنها تصبح ولا رسالة لها .. ومع كل فإننا متفائلون بإذن الله .

وإننا نرى على مر الزمن نوعًا من البعث الإسلامى ، هذا البعث الإسلامى يقوى إذا تكاتف هؤلاء الذين يدعون إلى النهضة الإسلامية الحقيقية ، إذا تكاتفوا وتعاونوا ، وأصبحت تربط بينهم وبين بعضهم الصلات الوثيقة فإن هذا البعث يقوى بإذن الله .. وكفى بربك هاديًا ونصيرًا ..

هذا وبالله التوفيق .

فهرس

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٤٦٩٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢١٠٠-٧	ISBN

١ / ٨٧ / ١٣٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)